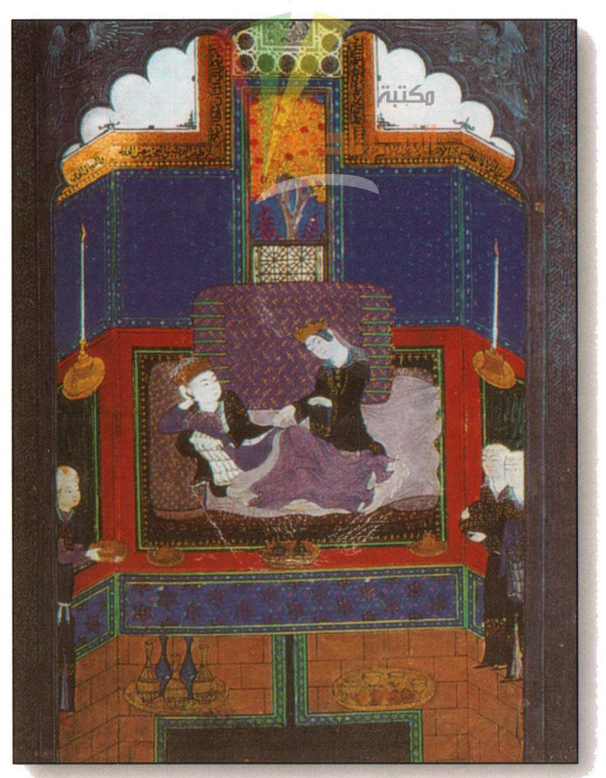
صادق هدايت

البومة العمياء



منشورات الجمل

صادق هدايت

البومة العمياء

رواية

ترجمة :
عمر عدس

منشورات الجمل



يعتبر **صادق هدايت** (١٩٠٣ طهران -١٩٥١ بارس) من أهم كتّاب اللغة الفارسية المعاصرين على الاطلاق. وتقف روايته **البومة العمياء** في مقدمة أعماله القليلة جداً وقد صدرت عام ١٩٣٦ لأول مرّة بخط يده في مدينة بومباي بالهند. ولم تطبع في بلده الا بعد انتحاره عام ١٩٥١ في باريس، حيث صدرت لأول مرّة عام ١٩٥٢ في طهران، كما انها تُرجمت الى الفرنسية في نفس العام وأعتبرها الكثير من الكتّاب، ومن ضمنهم الشاعر السوريالي أندريه بروتون، عملاً مهماً وأساسياً. منشورات الجمل تقدم لأول هذه الترجمة العربية **الكاملة** عن الفارسية.

ولد **عمر عدس** عام ١٩٥٠ في عنبتا بالقرب من نابلس. عمل في الصحافة الثقافية والتدريس والاعلام التربوي. له العديد من الكتابات النثرية والترجمات التي أغلبها لكتّاب شرقيين، منها: غلام حسين حسين ساعدي: مآتم، رواية، عزيز نيسين: أطفال آخر زمان، رواية، محمد بهرنجي: السمكة الصغيرة السوداء، ياشار كمال: محمد النحيل، رواية.

صادق هدايت: البومة العمياء، رواية

ترجمة: عمر عدس

الطبعة الأولى، كولونيا - المانيا

Postfach 600501
50685 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763



في الحياة جروح وعذابات تتآكل الروح مثل الُجذام وتبريها شيئاً فشيئاً بعيداً عن الأنظار.

هذه المواجع لا ينبغي إظهارها لأحد، إذ جرت العادة أن تعدّ هذه الآلام العصبيّة على التّصديق من قبيل المصادفات والحوادث النادرة العجيبة. ولو تكلّم بها أحدٌ أو كتبها لسعى الناس إلى استقبالها بابتسامات ساخرة متشككة جرياً على العقائد الشائعة ومعتقداتهم الخاصة - لأن الناس لّما يعثروا لها على دواء أو يملكوا إزاءها حيلة، وعلاجها الوحيد هو النسيان عن طريق تناول الشراب، والتّناوم بواسطة الأفيون والمواد المخدّرة - ولكن، للأسف، فإن تأثير مثل هذه العلاجات مؤقت، وبدلاً من التسكين تعود بعد مدة لتزيد في الألم وتذكيه.

هل يصل أحد في يوم من الأيام إلى أسرار هذه المصادفات الغيبية، هذا الانعكاس لظل الروح الذي يتجلى في حالة الإغماء عند البرزخ الذي يفصل بين النوم واليقظة؟

سوف أشرع في وصف واحد فحسب من هذه الأحداث، التي جرت معي، وهزتني الى درجة يستحيل نسيانها معها، والتي سيظل نذيرها المشؤوم يسمم حياتي بشراسة ما دمت حيّاً، ومنذ الأزل والى الأبد، والى درجة



تستعصي على الفهم والإدراك. — كتبت "تسمّم حياتي" ولكني أردت القول إن فجيعتها قد رافقتني دوماً وسوف تظل تفعل.

لسوف أحاول أن أكتب ما أتذكره، ما بقي في ذاكرتي من علاقات الأحداث، لعلّي أستطيع أن أصل الى حكم شامل عليها "كلاّ، بل أن أصل الى شيء تقرّ له نفسي، أو أن أُصدّق أنا - نفسي - لأنه لا يهمني على الإطلاق أن يصدّق الآخرون أو لا يصدّقوا - كل ما هنالك انني أخشى أن أموت غداً ولّما اعرفْ نفسي - لأنّ تجارب الحياة قد أوقفتني على سرِّ تلك الهوّة السحيقة التي تفصل بيني وبين الآخرين، وأفهمتني أنه ينبغي لي الخلود الى الصمت ما كان اليه سبيلٌ، وأنّ عليّ أن احتفظ بأفكاري لنفسي ما امكنني ذلك، وإذا كنت الآن قد عزمت على الكتابة، فليس ذلك إلاّ لكي أعرّف ظلي بي - ذلك الظلّ المنحني على الجدار، والذي يبدو وكأنه يبتلع كل ما أكتبه بشغف شديد - انه من أجله سوف أُجري تجربة: لأرى إن كان بوسعنا أن يعرف أحدنا الآخر على نحو أفضل. فمنذ قطعت كل علاقاتي بالآخرين وأنا أريد أن أعرف نفسي على نحو أفضل.

أفكار لا طائل تحتها! - ليكنْ، ولكنّ ما يعذّبني أكثر من أية حقيقة أخرى - أليس هؤلاء الناس الذين يشبهونني والذين يملكون في الظاهر احتياجاتي وميولي ورغباتي، أليسوا موجودين لخداعي؟ أليسوا سوى حفنة من شخوص لم تظهر الى الوجود إلاّ لخديعتي والسخرية مني؟ أليس ما أحسه وأراه وأفكر فيه وهْماً جميعُه، يفصله عن الحقيقة بون شاسع؟



اني أكتب لظلي وحسب، ظلّي السّاقط أمام المصباح على الجدار. ينبغي أن أعرّفه بنفسي.

....

لقد كانت أول مرة - في هذه الدنيا الوضيعة الغاصّة بالفقر والمسكنة - ظننت أن فيها شعاعاً من الشمس قد تألّق في حياتي - ولكن، أسفاً، لم يكن هذا شعاعَ شمس، بل محضَ ومضةٍ عابرةٍ، نجمةٍ طائرةٍ، تجلّت لي في إهاب امرأة أو ملاك، وعلى ضوئها رأيت في لحظة واحدة، بل ثانية واحدة، كلّ تعاسات حياتي وتقصّيتُ عظمتها وجلالها، ثم اختفت هذه الومضة في لُجّة الظلام حيث كان ينبغي أن تختفي - كلاّ، لم أستطع أن أحتفظ بهذه الومضة العابرة لنفسي.

لقد انقضت ثلاثة شهور - كلاّ، بل شهران وأربعة أيام منذ فقدت أثرها، ولكنّ ذكرى عينيها الساحرتين، أو شرارةِ عينيها القاتلةِ بقيت في حياتي على الدّوام - كيف أستطيع أن أنساها وهي على هذا القدر من الارتباط بحياتي؟

كلاّ، لن أذكر اسمها أبداً، لأنها بذلك القدّ الأثيري، الضّامر الضّبابي، وبتينك العينين الواسعتين المتألقتين الحائرتين اللتين من خلفهما تحترق حياتي وتنصهر بألم وعلى مهل، لم تَعُدْ تنتمي الى هذه الدنيا المفترسة الوضيعة - كلاّ، لا ينبغي أن ألوّث اسمها بالأشياء الأرضية. لقد أخرجت نفسي تماماً بعدها من زمرة الآدميّين، من زمرة الحمقى والمحظوظين، ولجأت الى الشراب



والعقاقير طلباً للنسيان - مضت حياتي وتمضي، طوال أيـــامي كلّـــها بـــين الجدران الأربعة لغرفتي - لقد مضت حياتي كلّها بين جدران أربعة.

كان كلّ ما يشغلني طوال اليوم هو الرّسم على جلد حافظات الأقــلام - كان كل وقتي وقفاً على الرسم على حافظات الأقـــلام، وعلـــى احتســـاء الشراب وتعاطي العقاقير، وكنت قد اخترت هذا الشغل لكي أخدّر نفســـي، ولكي أقتل الوقت.

كان بيتي - وذلك من محاسن الصُّدف - واقعاً خارج المدينة، في بقعــــة هادئة ساكنة بعيداً عن الإضطراب وعراك الناس في الحياة - في ناحية منعزلـــة وما حوله خراب. ومن وراء الخندق فقط تظهر البيوت الطينية الحقيرة وتبـــدأ المدينة. لا أدري أي مجنون أو فاسدِ الذوق بنى هذا البيت في الزمن الغـــابر، حين أغمض عيني، تتجسد في ذاكرتي كل أجزائه وتفاصيله، وليــــس هــــذا فحسب، بل أحس وطأة ثقلها على كاهلي. بيـــت لا يحتمـــل وجـــوده الاّ مرسوماً على حافظات الأقلام القديمة.

ينبغي أن أكتب كل هذه الأمور لأرى إن كان الأمر لم يختلـــط علـــي، ينبغي علي أن أوضح كل ذلك لظلي الساقط على الجدار - نعم، فمن قبل لم يكن قد تبقّى لي سوى مصدر واحد للفرح واهي الأساس. كنـــت أمـــارس الرسم على حافظات الأقلام بين جدران حجرتي الأربعة، وبهـــذه التسـلية المضحكة أزجي الوقت، ولكن بعد أن أبصرت تينـــك العينـــين، بعـــد أن



رأيتها[1]، لم أعد أقيم وزناً لمعنى ومفهوم وقيمة أية حركة - ولكن الشـــيء الغريب، الشيء الذي لا يصدّق، لا أدري لماذا كان المشهد في كل رســومي منذ البدء نوعاً واحداً وشكلاً واحداً. دوماً كنت أرسم شجرة سَرْوٍ، تحتــها شيخ محدودب يشبه دراويش الهند، متلفّع بعباءة، جاثم وقــد لــفّ رأســه بعمامة، ووضع سبّابة يده اليسرى على شفته متعجباً. - وفي مواجهته فتــاة بلباس أسود طويل انحنت تقدم له زهرة نيلوفر - حيث يفصل بينهما جـدول صغير - هل كنت رأيت هذا المشهد من قبل، أم أوحي الي أثناء النـــوم؟ لا أدري، ولكن ما أدريه هو أنني كلما كنت أرسم، فلا شيء ســـوى هــذا المشهد وهذا الموضوع، حيث ترسم يدي هذه الصـــورة دون إرادة مــني، وأغرب من ذلك أنه كان يوجد لهذا الرسم عملاء يشترونه، حتى لقد كنــت أرسل من هذه الحافظات الجلدية الى الهند بواسطة عمي، حيث كان يبيعـــها ويبعث الي بثمنها.

كان هذا المشهد يتراءى لي وهو يبتعد ويقترب، لا أذكـــر بـــالضبط - تذكرت الآن أمراً - قلت: ينبغي أن أكتب مذكراتي، ولكن هذا الحادث قـد وقع بعد ذلك بفترة طويلة، وليس له علاقة بالموضوع وعلى أثر هذا الحـادث ذاته أقلعت عن الرسم تماماً - قبل شهرين، كلاّ، مضى شهران وأربعة أيـــام. كان اليوم الثالث عشر من عيد النيروز. كان كل الناس قد اندفعوا خـــارج المدينة. كنت مغلِقاً نافذة حجرتي كي يخلو بالي للرسم، وقبيل الغروب، حين

---

[1] يعني، رأيت المرأة.



كنت منهمكاً في الرسم انفتح الباب فجأةً ودخل عمّي - هو قال انه عمّي، إذ لم أكن قد رأيته قطّ، حيث كان قد راح في سفر بعيد منذ ريعان الشباب. كان يبدو ربّان سفينة، تصورت أنه ربما كان له شغل تجاري معي، حيث كنت قد سمعت أنه يتعاطى التجارة كذلك - على أية حال كان عمي شيخاً محدودباً بعمامة هندية معقودة على رأسه، وعباءة صفراء مهترئة على كتفيه وقد لفّ رأسه ووجهه بوشاح عنق، ياقته مفتوحة ويبدو من خلالها شعر صدره الكثيف. وذقنه قليلة الشعر بارزة من تحت وشاح العنق، ويمكن عدّ شعراتها واحدةً واحدةً، له جفنان متورّمان أحمران وشفة مشقوقة - كان يشبهني شبهاً بعيداً ومضحكاً، كأن صورتي قد سقطت على مرآة مهشمة - لقد كنت أتصور شكل أبي دوما على هذا النحو، ما إن دخل حتى مضى نحو ركن الحجرة وجثا هناك - فكرت أن أكرمه بشيء أقدّمه اليه، أضأت المصباح، ودخلت ملحق غرفتي[٢] المظلم، بحثت في كل ركن لعلّي أجد شيئاً يأكله، رغم أني كنت أعلم أن البيت يخلو من أي شيء، فلم يكن قد تبقّى لديّ أفيون ولا شراب - وعلى حين غِرّةٍ ألقيت ببصري فوق الرّف - كأنه قد أُوحِيَ إلّي أن أفعل ذلك، فرأيت قارورة خمر عتيق كانت قد آلت إليّ بالوراثة - يبدو أنهم قد ذخروا هذا الشراب بمناسبة مولدي - كانت القارورة فوق الرّفّ، و لم أكن قد فكّرت بأمرها أبداً، إذ نسيت تماماً أن شيئاً كهذا يوجد في بيتي. وضعت كرسياً صغيراً كان هناك، تحت قدمي وصعدت

---

[٢] غرفة صغيرة تقوم وراء غرفة أخرى، تستخدم مخزناً لسقط المتاع في العادة.



عليه كي تطال يدي الرّف، ولكن ما إن مددت يدي نحو القارورة أتناولها حتى وقعت عيني على الخارج عبر فتحة التّهوية فوق الرف - رأيت في الخلاء الواقع خلف غرفتي شيخاً محدودباً، جالساً تحت شجرة سرو، وقد وقفت فتاة، كلاّ - بل ملاك سماوي - أمامه، منحنيةً تقدِّم اليه بيدها اليمنى زهرة نيلوفر زرقاء، في حين راح الشيخ يقضم ظفر سبابته اليسرى.

كانت الفتاة في مواجهتي تماماً، ولكن كان يبدو أنها غير آبهة بما حولها. كانت تنظر، دون أن تنظر؛ على حافة شفتها تجمدت ابتسامة مدهوشة لا إرادية، وكأنها كانت تفكر في شخص غائب - من هنا فقد رأيت عينيها المهيبتين الساحرتين، عينيها اللتين بَدَتا وكأنهما توجّهان للمرء تأنيباً مُرًّا، العينين المضطربتين، المتعجبتين الواعدتين والمتوعدتين، رأيتهما فامتزج شعاع حياتي بهاتين الكرتين البراقتين الموحيتين وغاص في أعماقهما - هذه المرآة الجذابة شدّت كامل وجودي نحوها إلى حدٍّ يعجز عنده فكر البشر - عينين مائلتين تُركُمانيّتين لهما نور ما وراءَ طبيعي، مُسكِر، وفي الوقت ذاته يخيف ويجذب، وكأنها قد أبصرت بعينيها مناظر مخيفة وما وراء طبيعية لم يكن بوسع كل شخص أن يبصرها؛ وجنتان بارزتان، جبهة عالية، حاجبان رفيعان متّصلان[٣]، شفتان مكتنزتان نصف مفتوحتين، شفتان كأنهما قد انسحبتا للتوِّ من قُبلة حارة طويلة دون أن ترتويا. شعر أسود أشعث متناثر أحاط بوجهها القمري، وخصلة منه مسبلة على صدغها. لطف أعضائها،

---

[٣] كان اتصال الحاجبين من معايير الجمال عند الفرس.



والعفوية الأثيرية في حركاتها، كانا يشيان بضعفها وبأنها مؤقتة، ولم يكن لواحدة أن تكون لها حركاتها الموزونة سوى راقصة في معبد هندي.

كانت حالتها الذابلة وفرحتها المثيرة للشّجى يشيران إلى أنها ليست كالناس العاديين، جمالها ليس عادياً، بدت لي مثل رؤيا وهمية مما تهيئه العقاقير...لقد ولّدت فيّ حرارة الحب ذاتها التي تولّدها نبتة المحبة[٤]، قوام فارع ظريف بخط متناسب ينحدر من الكتف والساعد والنهدين والصدر، والكفل والساق، كأنها قد انتُزع جسدها من أحضان إلفها - مثل شجيرة المحبة المؤنثة التي فصلت من حضن قرينها.

كانت ترتدي ثوبًا أسود مغضّنًا يليق بقوامها، حين نظرتُ إليها كانت تبدو وَ كأنها تهمّ بالقفز فوق الجدول الذي يفصل بينها وبين الشيخ، ولكنها لم تستطع، وعندئذ انفجر الشيخ بالضحك، ضحك جافٌّ منفّر يجعل شعر البدن ينتصب؛ ضحكٍ شديدٍ هجين ممزوجٍ بالسخرية، دون أن تتغّير ملامح وجهه، مثل صدى ضحك منبعث من خواء.

قفزت أهبط عن الكرسي مرعوبًا، والقارورة في يدي _ لا أدري لماذا كنت أرتعد، ارتعاداً مملوءًا بالخوف والنشوة، وكأنني قد هببتُ من حلم لذيذ مخيف _ وضعت قارورة الشراب على الأرض وأمسكت برأسي بين يديَّ _ كم دقيقة، كم ساعة انقضت؟ لا أدري _ عندما ثبت إلى رشدي، التقطت

---

[٤] نبتة المحبة: نبتة عشبية من فصيلة الباذنجانيات، لها جذر ضخم لحيم، غالباً ما يكون ذا شعبتين وشكلها الظاهري يشبه الجسد الآدمي (هيكل وساقان)، ولهذا فقد نُسجت حولها الأساطير المختلفة عند أمم كثيرة. وهي ما نسميه (تفاح المجانين).



قارورة الشراب، ودخلت الغرفة فوجدت عمّي قد انصرف تاركًا باب الحجرة مفتوحًا مثل فم ميت _ ولكنّ طنين ضحكة الشيخ الجافة مازال يتردّد في أذني.

كان الظلام آخذًا في الهبوط، والمصباح يبعث دخانًا، ولكن أثر الرعدة اللذيذة المخيفة التي كنت قد استشعرتها في جسدي ما يزال باقيًا _ لقد تغيرت حياتي منذ هذه اللحظة _ بنظرة واحدة كان يكفي ذلك الملاكَ السماويَ، تلك الفتاةَ الأثيريةَ، إلى ذلك الحدّ الذي يعجز عنده فكر البشر، أن تمارس تأثيرها عليّ.

في هذا الوقت كنت قد ذهلت عن نفسي؛ لكأنني كنت أعرف اسمها من قبل. وميض عينيها، لونها، أريجها، حركاتها، كل ذلك كان يبدو مألوفاً لديّ، كأن روحي كانت تجاور روحها في حياة سابقة في عالم مثالي، كأنني وإياها من أصل واحد ومن مادة واحدة وينبغي أن نندمج معاً. ينبغي أن أكون في هذه الحياة قريباً منها. لم أشأ قطُّ أن ألمسها، وكانت تكفي الأشعة غير المرئية التي تنبعث من جسدينا وتختلط معاً.

هذا الحادث المخيف بدا لي مألوفاً منذ النظرة الأولى، ألا يحسُّ العاشقان دائماً بأنهما قد سبق أن شاهدا بعضهما، وأن ثمة علاقة غامضة تربطهما؟ في هذه الدنيا الحقيرة كنت أنشد عشقها أو أن لا أعشق أحداً - هل كان بوسع شخص آخر أن يؤثر فيَّ؟ ولكنّ ضحكة الشيخ الجافة المنفّرة - هذه الضحكة المشؤومة قطعت عُرى العلاقة بيننا.



قضيت الليل كاملاً في هذه الأفكار. أردت عدة مرات أن أذهب فأنظر من كُوّة الجدار، ولكني كنت أخاف من صوت ضحكة الشيخ، وفي اليوم التالي كنت أفكر بهذه الأفكار ذاتها. هل كان بوسعي أن أصرف النظر تماماً عن رؤيتها؟ في غد ذلك اليوم، عزمت وأنا أرتعد من الخوف على أن أعيد قارورة الشراب الى مكانها، ولكن ما إن أزحت الستار الذي يغطي مدخل ملحق غرفتي، ونظرت، حتى كان الجدار الأسود الحالك، حلكة ذلك الظلام الذي لفّ حياتي كلها، ينتصب أمامي - فلم يكن يُرى هنالك أصلاً أية كوّة أو منفذ للخارج، كانت كوة الجدار المربعة مسدودة تماماً وقد غدت من ذلك النوع الذي يبدو وكأنه لم يكن له وجود أساساً. أدنيت الكرسي وأخذت أدق الجدار بقبضتي كالمجنون وأصغي وأنظر أمام المصباح، وكررت ذلك كثيراً، إلاّ أنه لم يكن هنالك أدنى أثر لكُوّة في الجدار، ولم تكن ضرباتي لتؤثر في الجدار الغليظ السميك - لقد غدا كله كتلة من رصاص.

هل كان بوسعي أن أصرف النظر عن الأمر تماماً؟ لكن الأمر لم يكن في يدي، منذئذ غدوت مثل روح معذبة، مهما أنتظر، ومهما أتربص، ومهما أبحث، فلا فائدة في ذلك. - لقد ذرعت المساحة الواقعة حول بيتي ماشياً، لا يوماً واحداً، ولا يومين، بل شهرين وأربعة أيام، مثل القاتل الذي يظل يحوم حول مسرح الجريمة، في كل يوم عند الغروب أدور حول بيتنا مثل طائر مقطوع الرأس حتى غدوت أعرف كل حجر وكل حصاة في تلك النواحي. ولكني لم أعثر على أي أثر لشجرة السرو، لجدول الماء، وللأشخاص الذين كنت رأيتهم هناك - كم من الليالي المقمرة كانت تنقضي وأنا جاثٍ على



الأرض أتوسل وأتضرّع إلى الأشجار، إلى الحجارة، الى القمر الذي ربما تكون قد نظرتْ اليه، أطلب العون من كل الموجودات، ولكني لم أعثر لها على أدنى أثر - لقد أدركتُ أصلاً أن كل هذه الأفعال لا طائل تحتها، لأنه لم يكن بوسعها(*) أن يكون لها صلة وارتباط بأشياء هذه الدنيا، فالماء الذي تغسل به غدائر شعرها مثلاً، ينبغي أن يكون من عين مقصورة على فرد مجهول أو من غارٍ مسحور. ولباسها لم يكن من خيوط الصوف والقطن العادية، ولم تخِطْهُ أيدٍ مادية، أيدٍ آدميةٌ - إنها وجودٌ منتخَب - لقد أدركتُ أن أزهار النيلوفر تلك لم تكن أزهاراً عادية، وأيقنت أنها لو رشقت على وجهها ماءاً عادياً لذبل وجهها، ولو قطفت بأصابعها الطويلة الظريفة زهرة نيلوفر عادية لذبلت أصابعها مثل بتلات الأزهار.

أدركت كلّ ذلك، كانت هذه الفتاة، بل هذا الملاك، منبع دهشة لي وإلهام لا يوصفان. كان وجودها فيضاً لا يُمَسّ باليد. لقد ولّدت فيّ الإحساس بالعبادة. إني على يقين أن نظرة واحدة اليها من أجنبي، من آدمي، كفيلة بأن تدنسها وتذبلها.

منذ أضعتها، منذ حالَ بيني وبينها جدار ثقيل، سدٌّ رطب ثقيل كالرصاص، لا ثغرة فيه، أحسست أن حياتي أصبحت عبثاً وضاعت للأبد. ورغم أن متعة النظر والنشوة العميقة اللتين ظفرت بهما من رؤيتها، كانتا من طرف واحد ولم تحملا اليّ رداًّ، لأنها لم تَرَني، إلاّ أنني كنت في حاجة الى

(*) الضمير يعود على المرأة.



هاتين العينين، فكانت نظرة واحدة منها كافية لحلّ كل المشكلات الفلسفية والأسرار الإلهية لديّ - بنظرة واحدة منها لم أعُد أواجه أيّ غموض أو أسرار.

منذئذٍ زدتُ في كمية الشراب والعقاقير التي أتناولها، ولكن، للأسف، بدلاً من أن تشلّ عقاقير اليأس هذه تفكيري، بدلاً من أن أنسى، فإن صورها، قوامها، وجهها، قد أخذت يوماً عن يوم وساعة عن ساعة ودقيقة عن دقيقة، تتجسد أمامي أشدَّ وأقوى من قبل.

كيف كان بوسعي أن أنسى؟ إن فتحت عينيّ أو أغمضتهما، في النوم وفي اليقظة كانت أمامي. من خلال كوّة ملحق حجرتي، مثل الليل الذي لفّ منطق الناس وفكرهم، من خلال الفتحة المربعة المطلة على الخارج كانت أمام ناظري دوماً.

أصبحت الراحة محرمة عليّ، أنّى لي أن أنعم بالراحة؟ كنت قد اعتدت أن أخرج كل يوم عند الغروب للنزهة، ولا أدري لماذا كنت أريد وأصرّ على أن أجد جدول الماء، وشجرة السرو، وشجيرة النيلوفر - لقد أدمنت على هذا التطواف مثل إدماني على العقاقير، وكأن قوة ما كانت تجبرني لأقوم به. وطوال الطريق كنت أفكر فيها، وأذكر المرة الأولى التي رأيتها فيها، وأسعى لكي أجد المكان الذي كنت رأيتها فيه، يوم الثالث عشر من عيد النيروز[٦].

---

[٦] النيروز: هو النوروز في الفارسية، أي اليوم الجديد. وهو أعظم الأعياد القومية في ايران، ويبدأ في اليوم الأول من الشهر الأول في السنة الهجرية الشمسية. أي يوم الاعتدال الربيعي.



- لو كنت وجدت ذلك المكان، لو استطعت أن أجلس تحت شجرة السرو تلك لنعمت بالهدوء في حياتي حتماً - ولكن للأسف لم يكن هنالك سوى فضلات القش والغبار والرمل الساخن وأضلاع حصان ميت، وكلب يتشمم الفضلات على مزبلة - هل كنت حقّاً قد قابلتها؟ - أبداً، كل ما هنالك، انّني كنت قد نظرتها سراً وخلسة من ثقب كوة مشؤومة في جدار ملحق غرفتي - مثل كلب جائع يتشمم على المزابل ويبحث، وما إن تحضُر سلة فضلات من بعيد حتى يهرب مذعوراً ويختبئ، ثم يعود ليبحث في الزبالة الطازجة عن فضلاته اللذيذة. كان حالي مثله تماماً، ولكن هذه الكوة قد سُدّت - لقد كانت بالنسبة اليّ باقة زهر غضة طازجة ملقاة على مزبلة[٧].

في ليلة أخرى مثل كل ليلة، خرجت للتطواف، كان الجو مكفهرّاً يَعِدُ بالمطر، وضباب كثيف يلفُّ الأنحاء - في الجو الماطر الذي يخفف من حدة الألوان ووقاحة خطوط الأشياء، كنت أحسّ نوعاً من الحرية والانفراج، وكأن المطر كان يغسل أفكاري المظلمة - وفي هذه الليلة حدث ما كان ينبغي أن لا يحدث - كنت أتسكع دون إرادة، ولكن في ساعات الوحدة هذه، في هذه الدقائق التي لا أذكر عددها تماماً، بدا وكأن وجهها المرتبك الشاحب يطل من وراء الغيم والدخان أشدّ وأوضحَ من قبل، ووجهها الجامد الخالي من التعبير مثل الرسوم على حافظات الأقلام، كان مجسماً أمام عيني.

---

[٧] الضمير يعود على المرأة.



حين عدت كان قد انقضى شطر كبير من الليل فيما أظن، والجوّ قد تلبّد بالضباب بحيث لم أكن قادراً على رؤية مواطئ قدميّ. ولكن، جرياً على العادة، واستناداً الى الحسّ الخاص الذي كان قد استيقظ لديّ، فقد رأيت أمام باب بيتي حين بلغته، هيئة ترتدي السواد، هيئة امرأة جالسة على الدكة الإسمنتية عند باب بيتي.

أشعلت عود ثقاب كي أرى فتحة القفل، ولكن لا أدري لماذا انصرف بصري دون إرادة مني نحو الهيئة المتلفعة بالسواد، فعرفت العينين المائلتين، العينين الواسعتين السوداوين، في طلعة شاحبة نحيلة، العينين ذاتيهما اللّتين تحدّقان في وجه المرء دون أن تنظرا، كنت أعرفها حتى ولو لم أكن قد رأيتها من قبل -، كلاّ، لم أنخدع. إنها هي. اني كمن يرى حلماً، وهو يعرف أنه حلم ويريد أن يستيقظ ولكنه لا يستطيع. وقفت مبهوتاً ذاهلاً، تسمّرت في مكاني، احترق عود الثقاب حتى عَقِبِه وحرق أصابعي، عندئذٍ ثُبتُ الى رشدي فجأةً، أدرت المفتاح في القفل، فانفتح الباب، تنحّيت جانباً - قلمت عن الدكة، ومثل من يعرف الطريق عبرت الرواق المظلم. فتحتْ باب حجرتي ودلفتْ وأنا في أثرها. أضأت المصباح مضطرباً فرأيتها قد مضت نحو سريري واستلقت عليه. كان وجهها واقعاً في الظلّ. لم أكن أعلم إن كانت تراني أم لا، إن كانت تستطيع أن تسمع صوتي أم لا. كانت تبدو لا خائفةً ولا راغبةً في المقاومة. كانت كأنها قد أتت دون إرادة.

هل كانت مريضة؟ هل ضلّت طريقها؟ لقد جاءت دون إرادة كمن يسير نائماً - في هذه اللحظة لا يستطيع أحد أن يتصور الحالات التي مررتُ بها -



أحسست ألماً مستمرّاً لا يمكن وصفه بكلام - كلاّ، لم أكن مخدوعاً. إنّ هذه هي تلك المرأة ذاتها، تلك الفتاة عينها، التي دلفت داخل حجرتي دون دهشة، دون أن تنبس ببنت شفة. كنت أتصور دائماً أن أول لقاء لنا سيكون علـــى هذا النحو. كانت هذه الحالة بالنسبة إليّ بمثابة نوم عميق لا نهاية له، إذ ينبغي الاستغراق في نوم عميق جدّاً لكي يمكن رؤية حلم كـــهذا، وكـــان هـــذا الصمت بالنسبة إليّ بمثابة حياة خالدة، ففي حالة الأزلية لا ينبغي الكـــلام. كانت بالنسبة إليّ امرأة فيها في الوقت ذاته، شيء ما وراء بشري. طلعتـــها نسيانٌ مثمل يجلب لي كل وجوه البشر الآخرين - على نحوٍ جعلني أرتعد وأنا أطالعها وتخور ساقاي - في هذه اللحظة لمحت كامل مصير حيـــاتي المفجـــع خلف عينيها الواسعتين، عينيها الواسعتين بلا حدود، العينين النّديّتين البراقتين، مثل كرتين من الألماس الأسود غُمِرَتا بـــالدمع - في عينيـــها - في عينيـــها السوداوين وجدت الليل الأبدي والظلمة المتراكمة اللذين كنت أبحث عنهما، وغُصْتُ في سوادهما المهيب الساحر، كانتا كأنهما تستخرجان من أعمـــاق وجودي طاقة ما، كانت الأرض تميد تحت قدميّ، ولو وقعتُ لأحسســـتُ نشوة تستعصي على الوصف.

توقف قلبي، حبست أنفاسي، كنت أخشى لو تنفستُ ان أبدّدها كـالغيم أو الدخان، كان صمتها صمتاً معجزاً، كانت كأن بيني وبينها جداراً مـــن بلّور، كنت من هذه اللحظة، هذه الساعة أو الأبدية أختنق - كأن عينيـــها المكدودتين قد رأتا شيئاً غير طبيعي مما لا يستطيع أحد أن يراه، كأنهما كانتـا قد أبصرَتا الموت، انطبقتا برفق، أغمض جفناهما، وأنا مثل غريق يطفو علـــى



الماء بعد جهاد عنيف، أخذت أرتجف من هول الحمّى وأجفف العرق من على جبيني بطرف كمّي.

كانت قسمات وجهها يعلوها السكون والهدوء السابقان، ولكنها كانت تبدو أهزل وأنحف. كانت مستلقية وهي تقضم ظفر سبابة يدها اليسرى - لون طلعتها أصفر شاحب، ومن وراء الثوب الرقيق الأسود الملتصق بجسدها كانت تلوح خطوط جسدها، ساقيها، ساعديها، وقميْ نهديها.

انحنيت كي أراها بشكل أفضل، حيث كانت عيناها مغمضتين. ولكن رغم إطالتي التحديق في وجهها فقد بدت بعيدة عني تماماً - أحسست فجأة أنه لا علم لي بمكنونات قلبها وأنه لا رابط أبداً يربط بيني وبينها.

أردت أن أقول شيئاً، ولكني خفت أن تنفر أذنها من صوتي، أذناها المرهفتان اللتان لا بدَّ قد اعتادتا على سماع موسيقى سماوية بعيدة عذبة.

خطر لي أنها ربما كانت جائعة أو عطشى، دخلتُ ملحق حجرتي لأبحث لها عن شيء - رغم علمي بأنه لا شيء في البيت - ولكن، وكما لو أن إلهاماً قد حلَّ بي، كان عندي فوق الرفّ قارورة شراب عتيق ورثتها عن أبي - صعدتُ على الكرسي وأنزلتها، ومشيت مترفقاً أقترب من جانب السرير، فرأيت أنها نائمة مثل طفل مُنهَك مهدود. كانت مستغرقة في النوم ورموشها الطويلة منطبقة على بعضها، كالمخمل - فتحتُ القارورة، ومن بين أسنانها المنطبقة بإحكام، سكبتُ كأساً من الشراب في فمها.

لأول مرة تولّد في حياتي فجأة احساس بالسكينة. حين رأيت هاتين العينين مغمضتين فكأن السرطان الذي كان يعذبني ويعتصر داخلي بقبضته



الفولاذية، قد هدأ قليلاً. أحضرت مقعدي، أدنيته من السرير ورحت أتأمل وجهها - يا لها من طلعة طفولية، ويا لها من سمات غريبة! هل يمكن لهذه المرأة، هذه الفتاة، أو ملاك العذاب هذا (حيث لم أكن أعرف أي اسم أطلقه عليها) هل يمكن أن يكون لها هذه الحياة المزدوجة؟ هادئةً الى هذا الحدّ، عفويةً الى هذا الحدّ؟

صار بوسعي الآن أن أحسّ حرارة جسدها وأن أقبّل الشذى الرطب المنبعث من غدائر شعرها الثقيلة السوداء - لا أدري لماذا رفعت يدي المرتعشة، لأن يدي لم تكن خاضعة لي، وداعبتُ غدائر شعرها، تلك الغدائر التي كانت لاصقة دوماً بصدغيها - ثم غصتُ بيدي خلال خُصَلِ شعرها - كان شعرها بارداً ورطباً - بارداً، بارداً تماماً. لكأنها ميتة منذ عدة أيام - لم أكن مخطئاً، لقد كانت ميتة. أدخلت يدي في مقدّم صدرها ووضعتها على ثدييها وقلبها - لم أحسَّ بأي نبض، أحضرت المرآة، ووضعتها أمام أنفها ولكن لم يكن فيها أي أثر لحياة...

أردت أن أدفئها بحرارة جسدي، أمنحَها حرارة جسدي وآخذَ منها بردَ الموت، لعلّي أستطيع بهذه الوسيلة أن أنفث روحي في جسدها - خلعتُ ملابسي ومضيت فنمت بجانبها على السرير - كنا متلاصقين مثل شجيرة محبة مذكّرة وأخرى مؤنّثة، كان جسدها أصلاً مثل جسد شجيرة محبة مؤنثة فُصِلتْ عن ذَكَرِها ولها ذلك العشق الحارق الذي لشجيرة المحبة - كان لفمها مذاق مرٌّ قابض، وطعم مثل طعم عَقِبِ الخيار. كان جسمها قد غدا بارداً كالبَرَد. أحسست أن الدم يتجمد في شراييني، وأن هذا البرْد يتغلغل في



أعماق قلبي - كل جهودي كانت عبثاً، نزلت عن السرير، وارتديت ثيابي. كلاّ، لم يكن كذباً، فهي هنا في غرفتي، في سريري جاءت وسلّمت اليّ جسدها. لقد منحتني جسدها وروحها معاً!

حين كانت على قيد الحياة، حين كانت عيناها تطفحان بالحياة كانت ذكرى عينيها وحسب تعذبني، ولكنها الآن دون حسٍّ أو حركة، باردةً وبعينين مغلقتين جاءت وسلمت اليّ نفسها - بعينين مغلقتين!

هذه هي الشخص ذاته الذي سمّم كامل حياتي، أو انّ حياتي أصلاً كانت قابلة لأن تتسمّم، وانني لم أكن قادراً على أن تكون لي حياة أخرى غير حياة مسمّمة - الآن هنا في غرفتي منحتني جسمها وظلها - لقد خرجت روحها المدمرة والمؤقتة التي لم يكن لها أي ارتباط بعالم أهل الأرض، من بين ثيابها السوداء المغضّنة بهدوء، من داخل جسد كان يعذبها ومضت نحو عالم الظلال الهائمة، وكأنها قد أخذت ظلي معها. ولكن جسدها كان ملقى هناك دون حس أو حركة - عضلاتها الغضة والمشلولة، شرايينها وأوردتها وأعصابها وعظامها كانت في انتظار أن تتحلل، وقد غدت طعاماً سائغاً للديدان وفئران القبو - انني في هذه الغرفة الحقيرة التي تغص بالشقاء والتعاسة، في حجرة كالقبر، في لجّة ظلام الليل الخالد الذي احتواني وتغلغل في جسوم الجدران، مضطرّ لأن أزجي ليلة طويلة مظلمة باردة ولا نهاية لها الى جوار ميت - مع جثتها - بدا لي أنه ما دام العالم موجوداً، وما دمت أنا موجوداً، فانّ ميتاً، ميتاً لا حسَّ فيه ولا حراك قد كان معي في الحجرة المظلمة، وما يزال.



في هذه اللحظة تجمدت أفكاري، وتولدت فيّ حياة تخصّ شخصاً عجيباً. ولما كانت حياتي آخذة بالارتباط بكل وجودٍ من حولي وبكل الظلال التي تتراقص حواليّ، ولما كنت على علاقة لا انفصام لعراها مع عالم وحركة الموجودات والطبيعة، وحيث امتدَّ بيني وبين جميع عناصر الطبيعة تيار مضطرب عبر خيوط لامرئية - فلم يكن أي نوع من الفكر أو الخيال يبدو غير طبيعي في نظري. كنت قادراً بسهولة على أن أفكَّ رموز الرّسوم القديمة، وأن أسبر أسرار كتب الفلسفة العويصة وأن أقفو آثار مختلف الحماقات الأزلية. ولأنني كنت في هذه اللحظة أشارك في دوران الأرض والأفلاك، وفي نموّ النباتات وتكاثرها وفي حركة الحيوانات، فقد اصبح الماضي والمستقبل، القريب والبعيد شريكاً وتوأماً لحياتي الحسية.

في مثل هذه المواقف يلجأ المرء الى عادة قوية اعتادها في حياته، الى فكرة اعتاد أن تستحوذ عليه: متعاطي المشروبات الروحية يلوذ بكأسه، الكاتب يلجأ للكتابة، والنحّات للنّحت، كل منهم يشفي غليله ويفرغ عقدته عن طريق الهروب عبر الدافع القوي في حياته، وفي هذه الظروف يستطيع الفنان الحقيقي أن يبدع - ولكن ماذا كان بوسعي، أنا العاجز عديم الذوق، الرسام على جلد حافظات الأقلام؟

بهذه الرسوم الجافة البراقة عديمة الروح التي كانت على شاكلة واحدة، ماذا كان بوسعي أن أرسم وأبدع من روائع؟ ولكني كنت أحس في كامل وجودي ذوقاً مفعماً وحماساً مفرطاً، كان نوعاً خاصاً من الشعور والانفعال، كنت أريد أن أرسم هاتين العينين اللتين أغمضتا الى الأبد، على الورق،



وأحتفظ بهما لنفسي. وهذا الاحساس أتاح لي أن أنفّذ ما عزمت عليه، أي أن الأمر لم يكن بيدي. وكذا الأمر حين يكون المرء حبيساً مع ميت - هذه الفكرة ولّدت لديّ سعادة خاصة.

أخيراً أطفأت المصباح المدخن، وأحضرت شمعدانين أضأتهما عند رأسها - غدت تعابير وجهها على ضوء الشموع الراعش أكثر سكينة، واكتست في ضوء الغرفة الخافت حالة غامضة أثيرية - أحضرت الورق ولوازم الشغل واقتربت من سريرها - فقد أصبح هذا السرير منذئذٍ سريرها - أردت أن أرسم هذا الشكل على مهل، هذا الشكل الذي كان محكوماً بالتحلل والعدم جزءاً جزءاً وببطء شديد، هذا الشكل الذي كان يبدو ساكناً وعلى وضع واحد، أردت أن أسجل خطوطه الأصلية على الورق. - أنتخب من هذا الوجه تلك الخطوط التي كانت مؤثرة فيّ. - والرسم وإن يكن مختصراً وبسيطاً إلاّ أنه ينبغي أن يكون مؤثراً وحيّاً ذا روح، ولكن كان يجب عليّ، أنا المعتاد على الرسم الجامد على حافظات الأقلام، أن أقدح زناد ذهني، وأن أجسد في ذاكرتي ما كنت أتخيله، أي ذلك الوهم الذي كان يوحيه اليّ وجهها ويؤثر بي، وأن ألقي بنظرة على طلعتها ثم أغمض عينيّ، وأخطّ على الورق الخطوط التي أنتخبها من قسماتها، لعلّي بذلك أجعل من فكري مخدّراً لروحي المعذبة - وألوذ في النهاية بالعالم الساكن للخطوط والأشكال.

كان لهذا الموضوع تناسب خاص مع أسلوبي الميت في الرسم - رسم الأموات - لقد كنت أساساً رسام الأموات. ولكن أكان ضروريا أن أرى



العينين، عينيها المغمضتين ثانيةً، ألم تكونا مجسمتين في فكري ودماغي بقدر كافٍ؟

لا أدري الى قرابة الفجر كم مرة رسمت وجهها، غير أني لم أستسغ أياً من الرسوم، فقد كنت أمزق ما أرسمه في كل مرة - و لم أكن لأتعب من ذلك أو أحسَّ بمرور الزمن.

كان الجو أغبش، ونورٌ أكمدُ يتسلل داخلاً عبر نافذة غرفتي، كنت منهمكاً في رسمٍ بدا لي أفضل من سابقيه، ولكن ماذا عن العينين؟ تينك العينين اللتين غُصّتا بالعتب والملامة وكأنني قد أتيت ذنوباً لا تغتفر، لم أستطع رسم تينك العينين على الورق - على حين غرة امّحت كل حياةٍ وذكرى تينك العينين من خاطري - كانت جهودي عبثاً، كم أطَلْتُ النظر في وجهها ولكن هيهات أن احتفظ بقسماته في ذاكرتي - لاحظتُ فجأة أن وجنتيها في هذا الوقت قد توردتا شيئاً فشيئاً، كان لوناً أحمر كَبِدِيّاً كلون اللحم أمام دكان القصاب، دبّت فيها الحياة وانفتحت عيناها ببطء شديد ونظرتا في وجهي، عيناها المتعجبتان المفتوحتان دون حدّ، العينان اللتان احتشد فيهما بريق الحياة كله، وأخذتا تومضان بالتماعٍ عليل، عيناها المريضتان العاتبتان - كانت تلك هي المرة الأولى التي انتبهتْ فيها لوجودي، نظرتْ اليّ ثم أغمضتْ عينيها من جديد - لعلَّ هذا الحدث لم يستغرق أكثر من لحظة ولكنه كان كافياً لأن اقتنص حالة عينيها وأجسدها على الورق - رسمت هذه الحالة برأس الفرشاة، وفي هذه المرة وما تلاها لم أمزق الرسم.



ثم نهضت من مكاني، واقتربت منها متمهلاً، ظننتها حية، قد غدت حيـة، ولكن عن قرب أحسست رائحة الميت، رائحة الميت المتحلل – على جسدها كانت تتلوى الديدان الصغيرة وذبابتان ضخمتان ذهبيتان تحوّمان حولها أمـام ضوء الشموع – لقد كانت ميتة تماماً، ولكن لماذا، وكيف انفتحت عيناهـا؟ لا أدري. هل رأيت ذلك في منام، أم كان حقيقة؟

لا أريد أحداً أن يوجه اليّ هذا السؤال، فقد كان وجهها هو المهم، كـلاّ بل عيناها، وها أنا قد ملكت هاتين العينين، ملكت روح هاتين العينين علـى الورق، ولم يعد جسدها ذا نفع لي، هذا الجسد المحكوم بالفناء والذي هـو طُعمة للديدان وفئران القبو! لقد اصبحتْ منذ ذلك الوقت فصاعداً خاضعـة لي، ولست أنا الألعوبة في يدها. صار بوسعي أن أرى عينيها في اللحظة الـتي أشاء. أخذت الرسم بعناية بالغة، ووضعته في علبة الصفيح التي أذخَـر بها مدخراتي، وأخفيت العلبة في ملحق غرفتي.

انصرف الليل على مهل، وكأنما قد نفض عنه التعب بقدر كاف، كـانت الأصوات القادمة من بعيد تُسمع خفيفة، لعلّ دجاجةً أو طيراً عابراً، كـان يحلم، لعل النباتات كانت تنمو – كانت النجوم الباهتة في هذا الوقت تختفـي وراء كتل الغيوم. أحسست على وجهي أنفاس الفجر العذبة وقد علا مـن بعيد صياح ديك.

ماذا كان بوسعي أن أفعل مع ميت؟ مع ميتة قد بدأ جسدها بـالتحلل! خطر لي بادئ ذي بدء أن أدفنها في حجرتي، ثم فكرت في أن أخرجها وألقي بها في بئر نبتت حولها أزهار النيلوفر الزرقاء – ولكن كم يلزم، مـن قـدح



الذهن والتعب والمهارة، لتنفيذ هذه الأعمال دون أن يراها أحد! هذا علاوة على أنني لم أكن أريد أن تقع عليها عينا غريب، كان عليّ أن أُنجِز كل هذه الأفعال بيدي وبمفردي - الى جهنم بي، ما نفع حياتي بعدها أصلاً؟ أمّا هي، فلا ينبغي أبداً، أبداً لأحد من الناس العاديين، أيِّ أحد غيري أن تقع عينه على جثتها - كانت قد جاءت الى غرفتي، واستسلمتْ اليّ بجسمها البارد وظلها كي لا يراها أحد آخر، كي لا تتلوث بنظرات أجنبي - خطرت لي في النهاية فكرة: لو أقطع جسدها إرَباً وأضعها في حقيبتي القديمة وآخذها خارجاً - بعيداً، بعيداً جدّاً عن أعين الناس، وأدفنها.

وفي هذه المرة لم أتردد، أحضرت السكين ذات المقبض العظمي التي كانت عندي في ملحق غرفتي، وبدأت بأن مزقت بعناية الثوب الأسود الرقيق الذي كان يحبسها بداخله مثل شبكة العنكبوت - الشيء الوحيد الذي كان يستر جسدها - كانت تبدو وكأنها قد طالت، إذ بدت لي أطول من المعتاد، ثم قطعت رأسها - خرجت من حلقها قطرات الدم المتخثر البارد، ثم قطعت يديها ورجليها، ورتبت جسدها وأعضاءها داخل الحقيبة، ثم أرخيت عليها لباسها، لباسها الأسود ذاته - أقفلت الحقيبة ووضعت مفتاحها في جيبي - وما إن فرغت حتى تنفست الصعداء، تناولت الحقيبة وعاينت وزنها، كانت ثقيلة، لم أكن قد شعرت من قبل بمثل ذلك القدر من التعب - كلاّ، لم أكن قادراً على حمل الحقيبة وأخذها بمفردي.

غام الجو من جديد، وشرع رذاذُ مطر خفيف في التّساقط. خرجت من غرفتي لعلّي أجد شخصاً يحمل الحقيبة معي - لم يكن في تلك الأنحاء من



أحد، سرّحت الطرف أبعد قليلاً وأنعمت النظر، رأيت من خلال الجو الضبابي شيخاً محدودباً جالساً تحت شجرة سرو. وجهه لا يبين من خلف وشاح عنق عريض تقنّع به - اقتربت منه على مهل. لم أكن قد قلت شيئاً بعد، إذ ابتدرني الشيخ بضحكة هجينة جافة منفرة جعلت الشعر ينتصب على جسمي وقال:

- "إن كنت تريد حمّالاً فأنا جاهز، لاحظْ - كما إنّ عندي عربة لنقل الجثث - إني أنقل الموتى في كل يوم الى مزار الشاه عبد العظيم[^8] وأدفنهم هناك، كما اني أصنع التوابيت، وعندي تابوت لكل شخص وعلى قياسه تماماً، وأنا نفسي جاهز، في التوّ واللحظة!... ".

قهقه ضاحكاً بشدة بحيث اهتزت كتفاه. أشرت بيدي نحو بيتي، ولكنه لم يمنحني فرصة للكلام وقال :

"- لا ضرورة لذلك، فأنا أعرف بيتك، الآن فوراً، لاحظْ".

نهض من مكانه، عدت نحو بيتي، دخلت غرفتي، وجررت حقيبة الجثة بصعوبة حتى عتبة الباب. رأيت عربة نقل موتى قديمة مهترئة واقفة بالباب وقد رُبط اليها حصانان أسودان ناحلان كأنهما هيكلان - وقد جلس الشيخ الأحدب في مقعد الحوذي وبيده سوط طويل، غير انه لم يلتفت لينظر اليّ - وضعت الحقيبة بصعوبة داخل العربة التي كان جوفها مكاناً خاصاً للتوابيت. صعدت العربة واستلقيت في مكان التابوت موسّداً رأسي على حافة

[^8]: - الشاه عبد العظيم: مزار في طهران، يسمونه (باب الحوائج) و(السيد الكريم) الذي لا يردُّ قاصداً.. ويقال: (من زار عبد العظيم في ري، كمن زار الحسين في كربلاء).



التجويف كي أتمكن من رؤية ما حولي - ثم زلقت الحقيبة علـــى صـــدري وأمسكت بها بإحكام بكلتا يدي.

لعلع السوط في الهواء، ومشى الحصانان وهما يلهثان والبخار المتصاعد من مناخرهما يبدو في الجو الماطر كالمدخنة، وهما يقفزان قفزات عريضة مريحـة - وكانت أيديهما النحيلة تطأ الأرض برفق ودون صوت، وهي تبدو مثل يدي لصّ قطعت أصابعهما طبقاً للشريعة وغمست في الزيت المغلـــي - وكـــان صوت الأجراس في عنقيهما يترنم في الجو الرطب بلحن خاص - تولّتني حالة من الارتياح هائلة دون سبب واضح شملتني من أخمص قدمـــي حـــتى قمـــة رأسي، بحيث لم تضايقني حركة عربة نقل الموتى قيد أنملة - وليس سوى انني كنت أحس بثقل الحقيبة على قفصي الصدري -.

بدا جسدها الميت، جثتها، وكأنه كان دائما ً يضغط على صدري هـــذا الثقل. شمل الضباب الكثيف جوانب الطريق. كانت العربة تطـــوي الجبـــال والصحاري والوديان بسرعة وسهولة خاصّين، وكان يبدو من حولي منظـــر جديد لا نظير له، ما كنت رأيته في حلم أو يقظة: كانت تبدو على جـــانبي الطريق جبال مثلّمة وأشجار عجيبة غريبة قميئة ملعونة، ومن خلالها تُـــرى بيوت رمادية اللون بأشكال مثلثة ومكعبة ومنشورية بنوافذ واطئـــة مظلمـــة وبدون زجاج - كانت هذه النوافذ شبيهة بالعيون الزائغة النظرات لأنـــاس يعانون الحمّى. لا أدري ما الذي كان في الجدران بحيث كانت توصِل القَـــرَّ والبرد حتى قلب المرء. لكأنه لم يكن بوسع كائن حي أبداً أن يَعمُـــرَ هـــذه البيوت، ولعلها قد أقيمت لسكنى ظلال كائنات أثيرية.



كان الحوذي وكأنه يأخذني من طريق خاصة أو انه قد انحرف عن الطريق الصحيحة، وفي بعض الأماكن لم يكن يحيط بالطريق سوى الجذوع المقصوصة لأشجار عوجاء شعثاء، ومن خلفها تبدو البيوت الواطئة والعالية، بأشكال هندسية، مخروطية ومخروطية ناقصة بنوافذ ضيقة منحرفة برزت منها للخارج أزهار نيلوفر زرقاء وارتفعت في كل مكان. اختفى هذا المشهد فجأة خلف الضباب الكثيف - حفّت الغيوم الكثيفة المحملة بالمطر بقمم الجبال وأناخت عليها وانتشر زذاذ المطر في الجو مثل ذرات الغبار المتطايرة حرة دون قيود. وبعد أن مشينا مدة طويلة أوقف الحوذي عربة نقل الموتى قريباً من جبل عال لا ماء فيه ولا عشب، زلقت الحقيبة عن صدري ونهضت.

خلف الجبل كانت مساحة خالية تخيم عليها السكينة، مكان لم أكن قد رأيته من قبل أو عرفته، ولكنه بدا لي مألوفاً وكأنه ليس خارج اطار تصوري - كان وجه الأرض مكسوّاً بشجيرات النيلوفر التي لا رائحة لها، فكان يبدو وكأن أحداً لم تطأ قدماه هذا المكان من قبل - وضعت الحقيبة على الأرض، التفت الحوذي اليّ وقال:

- "هنا قريب من مزار الشاه عبد العظيم، ليس لك مكان أفضل من هذا، لا طير يرفّ بجناحه هنا، لاحظْ!..".

أدخلت يدي في جيبي لأدفع أجرة صاحب العربة، لم يكن في جيبي أكثر من ريالين وعباسي[٩]. ضحك الحوذي ضحكة جافة منفرة وقال :

---

[٩] عباسي: وحدة نقد كانت ايام الشاه عباس الكبير ،وكان التومان يومئذٍ يعادل (٥٠) عباساً.



- "الأمر لا يستحق، آخذ فيما بعد. فأنا أعرف بيتك. لم تعدْ في حاجة اليّ، ها. لا داعي للخجل. لنذهبْ الى هناك قريباً من مجرى النهر بجانب سجرة السرو، وسأحفر لك حفرة تسع الحقيبة وأذهب".

قفز الشيخ هابطاً من مقعده بخفة ومهارة خاصتيْن لم أكن قادراً على تصورهما من قبل. حملت الحقيبة، ومضى كلانا نحو جذع شجرة كانت بجانب مجرى نهر جاف. قال الشيخ:

- "أهنا جيد؟".

وبدون أن ينتظر مني جواباً انطلق يحفر بفأس ومعزقة كانتا معه. وضعت الحقيبة على الأرض ووقفت في مكاني أرقبه مذهولاً. كان منهمكاً بالعمل بظهر منحنٍ وحذقِ خبيرٍ عتيقٍ، وبينما هو يحفر ويفحص عثر على شيء شبيه بإبريق مطليّ بالمينا، لفّه بمنديل وسخ، ثم اعتدل قائلاً:

- "ها هي حفرة محترمة، لاحظْ، وهي بحجم الحقيبة تماماً، لا تختلف عنها قيد شعرة!".

وضعت يدي في جيبي لأعطيه أجره. لم يكن معي سوى قِرانيْن[١٠] وعباسي واحد، ضحك الشيخ ضحكة جافة تثير الرجفة في البدن، وقال:

- "لا داعي، فالأمر لا يستأهل، وأنا أعرف بيت حضرتك - كما انني قد عثرت عوضاً عن أجري، على كوزٍ، أصيصِ وردٍ قديم، يعود الى مدينة (ري) القديمة!"[١١].

---

[١٠] قِرانين: القِران وحدة عملة ايرانية في عهد الأسرة القاجارية، وأوائل حكم الأسرة الفهلوية. وكانت من الفضة وهي تعادل الريال الحالي.



ثم أخذ يضحك بقامته المنحنية المحدودبة، وكتفاه تهتزان. وضع الكوز الذي كان ملفوفاً بمنديل قذر تحت إبطه واتجه نحو العربة، وبمهارة وحذق اعتلاها وأخذ مكانه في مقعد الحوذي. لعلع السوط في الهواء، انطلق الحصانان وهما يلهثان، وصوت الأجراس في عنقيهما يترنّم في الجو الرطب بلحن خاص، وشيئاً فشيئاً غاب عن ناظري خلف حشد الضباب.

ما إن خلوت بنفسي حتى تنفست الصعداء، وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري، وغمرتني سكينة منعشة – نظرت فيما حولي: هنا مساحة صغيرة انحشرت بين التلال والجبال الشاحبة. على احدى سلاسل الجبال ثمة آثار وأبنية قديمة من آجرّ نيءّ ضخم، ومجرى نهر جاف يُرى على مقربة – كان هذا المكان خلوة قصية هادئة. وكنت سعيداً من الأعماق، وقد قلت لنفسي حين تستيقظ هاتان العينان الواسعتان من نومهما الأرضي فسوف تجد (صاحبتهما) مكاناً يليق بتكوينها وبسيماء وجهها، وعليه فانه ينبغي أن تكون بعيدة عن سائر الناس، عن جثث الموتى الآخرين، مثلما كانت أثناء حياتها بعيدة عن حياة الآخرين.

حملت الحقيبة بعناية ووضعتها في الحفرة – كانت الحفرة بقياس الحقيبة تماماً، لا تختلف قيد شعرة، ولكني وددت أن ألقي نظرة واحدة، للمرة الأخيرة على داخلها، على داخل الحقيبة. نظرت حولي، لم يكن ثمة من بشر، أخرجت المفتاح من جيبي وفتحت باب الحقيبة – ولكني حين نحّيت طرف

---

(١١) ري: جنوب مدينة طهران الحالية، مدينة قديمة.. زارها ياقوت الحموي وشهد خرابها على أيدي المغول سنة ٦١٧ هجرية.



ردائها الأسود رأيت من خلال الدم المتخثر والديدان التي تتلوى فوق بعضها، العينين الواسعتين السوداوين اللتين كانتا تنظران اليّ صريحتين خاليتين من التعبير، وحياتي غارقة فيهما. أغلقت الحقيبة على عجل، وهِلتُ التراب وضغطته بقبضتيّ، مضيت فأحضرت بعضاً من شجيرات النيلوفر التي لا رائحة لها وزرعتها على قبرها، ثم أخذت بعض الرمل والدَّبْش ونثرتها عليه كي ينمحي أثره تماماً فلا يستطيع أحد تمييزه، وقد أجدت في انجاز هذا العمل بحيث لم أستطع - أنا نفسي - أن أميز القبر مما يحيط به من الأرض.

بعد أن فرغت، نظرت الى نفسي فرأيت ثيابي مغبرّة وقد لصق بها دم متخثر أسود، ومن حولي تطير ذبابتان ضخمتان ذهبيّتا اللون، كما علقت بجسمي ديدان صغيرة تتلوّى - أردت تنظيف بقعة الدم عن حضني فرطّبت طرف كمّي بلعابي ومسحت على البقعة فغدتْ أوسع وأكثف، وكلما أمعنت في ذلك ازدادت انتشاراً بحيث شملت جسدي كله، فأحسست ببرودة الدم اللزجة على جسمي.

كان الوقت قبيل الغروب، والمطر يتساقط رذاذاً، اقتفيت أثر عجلات عربة نقل الموتى دون إرادة، ومشيت. وما إن حلّ الظلام حتّى فقدتُ ذلك الأثر، فتابعت سيري البطيء في الظلام الكثيف المتراكم، دون غاية، ودون فكر ودون إرادة، وأنا لا أعرف الى أين سأنتهي، لأنني بعدها، بعد أن رأيت تينك العينين الواسعتين خلال الدم المتخثر، كنت أمشي في ليل دامس، ليل عميق شمل حياتي كلها، لأن العينين اللتين كانتا المصباح الذي ينير درب



حياتي، قد خبّتا الى الأبد، فأصبح سواءاً عندي أن أصل الى مكان يؤويني أو لا أصل.

كان الصمت الشامل يخيم على الكون، بدا لي أن الجميع قد تخلّوا عني، فلجأت الى الموجودات الخالية من الروح. نشأت علاقة بيني وبين أحداث الطبيعة، بيني وبين الظلام العميق الذي تغلغل في أعماق روحي - إنّ هذا الصمت ضربٌ من اللغة التي لا نفهمها، دار رأسي من فرط النشوة؛ تولتني حالة من الغثيان وارتختْ ساقاي. أحسست في نفسي تعباً لا حدَّ له؛ دخلت المقبرة القائمة علي جنب الطريق وجلست على شاهد أحد القبور، أمسكت برأسي بين يديّ وسبحت في بحر من الحيرة - على حين غرّة علا صوت ضحكة جشّاءَ منفّرة أعادت اليّ انتباهي، التفتُ فرأيت الهيكل الذي لفّع وجهه ورأسه بوشاح العنق جالساً بجانبي وتحت إبطه شيء لُفَّ بمنديل، أدار وجهه نحوي وقال :

"- لا بدَّ أنك تودّ الذهاب الى المدينة، لقد ضللتَ الطريق، ها؟ لا بدّ أنك تتساءل ماذا أفعل في المقبرة في هذه الساعة من الليل - لكن، لا تخفْ، ان اشتغالي بالموتى، وعملي هو حفر القبور، ليس عملاً سيئاً، أليس كذلك؟ انني أعرف كل شبر في هذه الأنحاء - اليوم مثلاً، رحت أحفر قبراً فخرج هذا الأصيص من تحت التراب، أتعرف؟ انه أصيص قديم، يعود الى مدينة (ري) القديمة. وأنا أبذله لك، وأعطيك اياه ذكرىً مني".

وضعت يدي في جيبي وأخرجت ريالين وعباسياً، فقال الشيخ وهو يضحك ضحكته الخشنة التي تبعث الرّعدة في البدن: "كلا، أبداً، بل أبذله



لك مجاناً، فأنا أعرفك. كما أعرف بيتك - هو قريب من هنا. ان عندي عربة لنقل الموتى، هيا أوصلْك الى بيتك، هيا انهض.".

وضع الكوز في حضني ونهض - كانت كتفاه تهتزان من شدة الضحك، تناولت الكوز ومضيت في اثر هيكل العجوز المحدودب. عند منعطف الطريق كانت تقف عربة نقل موتى مهترئة وقد ربط اليها حصانان أسودان ناحلان - مضى الشيخ بمهارة فجلس في مقعد الحوذي، كما صعدت بدوري، وتمددت داخل العربة في المكان المخصص لوضع التابوت فيه، وأسندت رأسي الى حافته كي أتمكن من رؤية ما حولي، وضعت الكوز على صدري وأمسكت به بيدي.

علا حفيف السوط، وانطلق الجوادان يلهثان. كانا يعدوان بقفز واسع مريح، وحوافرهما تطأ الأرض برفق ودون صوت. ورنين الأجراس في عنقيهما يشيع في الجو الرطب بلحن خاص - من وراء الغيم أطلت النجوم مثل حدقات عيون براقة تبرز من خلال دم متخثر أسود وتحدّق في وجه الأرض - شملني شعور براحة لذيذة، ولم يكن ثمة سوى الأصيص يضغط على صدري مثل جثة ميت - كانت الأشجار المتشابكة بأغصانها العوجاء المشعثة وكأنها تمسك بأيدي بعضها البعض خشية أن تتعثر في الظلام وتقع على الأرض. والبيوت العجيبة الغريبة بأشكالها الهندسية المقطعة ونوافذها المهجورة السوداء مصطفّة على جانب الشارع، ولكن جذوع جدران هذه البيوت مثل حشرة اليراع تبعث ضوءاً أكمدَ عليلاً، والأشجار تمرّ مرتاعة سرباً سرباً، وصفّاً صفّاً وتولّي هاربة في اثر بعضها، ولكن تبدو سيقان أزهار النيلوفر



وهي تتعثر بين أقدام الأشجار وتقع على الأرض. كانت رائحةُ الموتى، رائحةُ اللحم المتحلل تحاصر روحي من كل جانب، وكأن هذه الرائحة كانت متغلغلة في جسمي دائماً، وكأنني قد كنت طوال عمري راقداً في تابوت أسود، وشخص عجوز أحدب لا أرى وجهه يطوف بي خلال الضباب والظلال العابرة.

توقفت عربة نقل الموتى، تناولتُ الكوز وقفزت هابطاً منها. كنت أمام بيتي، دخلت غرفتي على عجل، وضعت الكوز على المنضدة، وتناولت علبة الصفيح، تلك العلبة التي كنت أَذخَر فيها نقودي وأخفيها في ملحق غرفتي، أخذتها واتجهت نحو الباب لأعطيها للحوذي العجوز بدلاً عن أجره، ولكنه كان قد اختفى دون أن يخلّف أثراً له أو لعربته - عدت الى غرفتي يائساً، أضأت المصباح، وأخرجت الكوز من المنديل، مسحت عنه التراب بكُمّي، كان للكوز طلاء من المينا شفاف قديم بنفسجي، بدا بلون نحلة ذهبية مسحوقة، وعلى أحد جوانبه حاشية لوزية الشكل من النيلوفر الأزرق وضمّنها...

ضِمْنَ الحاشية اللوزية وجهُها... رسمٌ لوجه امرأة عيناها واسعتان سوداوان، عينان أوسع من المعتاد، عينان عاتبتان، وكأنني قد بدرتْ مني ذنوب لا تغتفر دون أن أدري. كانتا عينين فاتنتين، وفي الوقت ذاته مضطربتين متعجبتين واعدتين متوعدتين. كانت هاتان العينان تخافان وتجذبان، وفي أعماقهما يومض شعاع مثمل ما وراء طبيعي. وكان لتلك



المرأة وجنتان بارزتان وجبهة عالية وحاجبان رفيعان متصلان، وشفتان مكتنزتان نصف مفتوحتين، وشعر مشعث لصقت خصلة منه بصدغيها.

أخرجت الرسم الذي كنت قد عملته ليلة أمس لوجهها من علبة الصفيح، وقارنت، لم يكن ثمة أدنى فرق بينه وبين الرسم على الكوز، وكأن أحدهما صورة للآخر، كلاهما واحد هو أصلاً عمل رسام شقيّ صانع أغلفة حافظات أقلام - لعل روح رسام الكوز قد حلّت بي عندما رسمتُ وسخّرتْ يدي لإرادتها. لم يكن ممكناً تفريق احد الرسمين عن الآخر، غير أن رسمي كان على الورق، في حين كان للرسم على الكوز طلاء من الميناء شفاف قديم، ويمثل روحاً غامضة، روحاً غريبة غير عادية، تقدح في أعماق عينيها شرارة روح شريرة - كلاّ، لم يكن الأمر مما لا يصدّق، انهما تانك العينان ذاتهما الواسعتان غير المتفكرتين، والوجه ذاته الكتوم والحرّ في آنٍ معاً! لا يستطيع أحد أن يكتشف أي احساس تولاّني. أردت أن أهرب من نفسي - هل كانت مثل تلك المصادفة ممكنة؟ لقد تجسمت تعاسات حياتي كلها أمام ناظري مرة أخرى - ألم تكفِني عينا شخص واحد! الآن ثمة شخصان اثنان ينظران اليّ بالعينين ذاتهما، العينين اللتين كانتا لها! كلاّ، لم يكن الأمر مما يمكن تحمله أبداً - العين ذاتها التي أُودِعَت الثرى هناك قريباً من الجبل بجانب جذع شجرة السّروِ عند مجرى النهر الجاف. تحت أزهار النيلوفر الزرقاء، خلال الدم الكثيف، بين الديدان والحيوانات والحشرات اللاسعة التي أقامت حولها احتفالاً، وجذور النباتات سرعان ما تغوص في حدقتها فتمتصّ عصارتها، الآن تنظر اليّ مفعمة بالحياة!



لم أكن أحسب نفسي شقيّاً وملعوناً الى هذا الحدّ، ولكن بفعل الحس الإجرامي الكامن فيّ، اعتراني في الوقت نفسه سرور لا مبرر له، سرور غريب - إذ أدركت أن لديّ شخصاً قديماً يشاطرني الأسى - ألم يكن هذا الرسام القديم، الرسام الذي رسم على هذا الكوز قبل مئات السنين وربما قبل ألوف السنين، ألم يكن شريكي في الهم؟ ألم يمرَّ بعوالمي هذه ذاتها؟ كنت الى هذه اللحظة، أعُدُّ نفسي أتعس الكائنات، ولكني اكتشفت أنه في زمان ما وعلى هذه الجبال وفي هذه البيوت والقرى البائدة التي بنيت من آجرّ ثقيل كان يعيش أناس تحللت عظامهم الآن، وربما تعيش ذرات سائر اجزاء أجسادهم في أزهار النيلوفر الزرقاء - بين هؤلاء الناس ربما كان يوجد رسام منحوس، رسام ملعون، شخص يصنع أغلفة حافظات الأقلام تعيسٌ مثلي، مثلي تماماً - وقد اكتشفت الآن وحسب أن بوسعي أن أدرك أنه هو أيضاً كان يحترق ويتعذب بين عينين واسعتين سوداوين - مثلي تماماً - وهذا الأمر بالذات كان يعزّيني ويسرّي عني.

أخيراً وضعت رسمي الى جانب رسم الكوز، ثم ذهبت وهيأت مجمرتي الخاصة، وحين توهجت النار أخذتُ المجمرة ووضعتها أمام الرسمين - سحبت عدة أنفاس من الوافور (الغليون) ورحت أتأمل الرسمين وأنا هائم في عالم النشوة، حيث كنت أريد أن استجمع أفكاري، و لم يكن سوى الدخان الأثيري للعقار يستطيع أن يجمع أفكاري ويخلق لي الراحة الفكرية.

دخنت كل ما كان عندي من عقار، حتى يذهب هذا العقار العجيب بكل المشكلات ويجلو كل الحجب التي رانت على عيني، ويبدّد كل هذه



الذكريات البعيدة الرمادية المتراكمة - وقد جاءت الحالة التي كنت أنتظرها وأكثر مما كنت أتوقع: غدت أفكاري شيئاً فشيئاً دقيقة عظيمة أسطورية، وغرقتُ في حالة نصفها النوم ونصفها الإغماء.

ثم بدا وكأن الضغط والثقل قد انزاحا عن صدري. كأن قانون الجاذبية الأرضية لم يعد ينطبق عليّ، فصرت أطير بحرية وراء أفكاري التي غدت عظيمة دقيقة ثاقبة - واستغرقتني حالة نشوة عميقة لا يمكن التعبير عنها. لقد تحررت من قيد حَمْلِ جسدي. عالم ساكن ولكنه غاصّ بالأشكال والألوان الساحرة واللذيذة - ثم تقطّع حبل أفكاري وانحلّتْ في هذه الأشكال والألوان - كنت غاطساً في أمواج مليئة بالمداعبات الأثيرية. كنت أسمع صوت قلبي وأحسّ حركة شراييني. كانت هذه الحالة بالنسبة اليّ مفعمة بالمعنى والنشوة معاً.

كنت أريد وأتمنّى من أعماق قلبي أن أسلم نفسي لحلم النسيان. لو كان هذا النسيان ممكناً، لو كان له أن يدوم، لو أن عينيّ حين تغمضان تذهبان فيما وراء النوم بطيئاً في عدمٍ محضٍ فلا أحسّ بوجودي، لو كان لوجودي كله أن يمتزج في بقعة حبر، في لحنِ موسيقى أوشعاع ملون ثم تكبر الأمواج والأشكال الى حدٍّ يجلعها تنمحي تماماً وتختفي، لوصلت الى مرادي.

سيطرتْ عليّ بالتدريج حالةٌ من الخمود والخدر، كانت كأن نوعاً من الإعياء اللذيذ أو الأمواج اللطيفة تنبعث من جسمي نحو الخارج - ثم أحسست أن حياتي تسير القهقرى. أخذتُ بالتدريج أرى ظروف وأحداث الماضي وذكريات أيام طفولتي التي انمحت وطواها النسيان - لم أكن أراها



وحسب بل كنت أشارك في هذه النّزاعات وأحس بها، وصرت أصغُر لحظة بلحظة وأغدو أكثر طفولة، ثم انمحت افكاري فجأة وأظلمت، وبدا لي أن كامل وجودي قد عُلّق على كلاّب رفيع وأنني مُدَلّىً في جوف بئر عميقة مظلمة - ثم تحرّرتُ من الكلاّب. كنت أنزلق وأبتعد دون أن أصطدم بأي حاجز - كانت هاوية لا قرار لها في ليل أبدي - بعد ذلك أخذتْ تتشكل أمام ناظري على نحو متتابع، المناظرُ والمشاهد التي كانت قد انمحت وأُبهِمَتْ - مررتُ بلحظةٍ من النسيان المحض - وحين ثُبتُ الى رشدي ألفيت نفسي فجأة في حجرة صغيرة وكنت في وضع خاص بدا لي غريباً، وطبيعياً في الوقت ذاته.

* * *

كانت البيئة والأوضاع في العالم الجديد الذي استيقظت فيه مألوفة لديّ قريبة من نفسي، مأنوسة أكثر من حياتي وبيئتي السابقتين - كأنها صورة حياتي الحقيقية - عالم آخر ولكنه قريب مني وثيق الصلة بي بحيث بدا لي أنني قد عدت الى وسطي الأصلي - وانني قد ولدت في عالم قديم ولكنه أقرب وأكثر طبيعية في الوقت ذاته.

كان الوقت غسقاً. ومصباح في مشكاته داخل غرفتي شحمه يحترق على مهل، وفراش ملقى في ركن من أركان الغرفة، غير انني كنت صاحياً، وأحسّ أن جسمي شديد الحرارة وأن بقعاً من الدم تلتصق بعباءتي ووشاح عنقي ويديّ داميتان. ولكن رغم الحمّى ودوار الرأس الاّ أن نوعاً من الاضطراب والاهتياج قد تولّدا فيّ فكانا أشدّ من فكرة محو آثار الدم، وأشدّ



من الخشية من أن يأتي رئيس الشرطة ويلقي القبض عليّ - عندئـــذٍ طـال انتظاري لأن أقع في قبضة رئيس الشرطة. ولكنني عزمت علـى أن أشـرب كأس الشراب المسموم الذي كان على الرفّ بجرعة واحدة قبل إلقاء القبـض عليّ - والحاجة للكتابة هي التي غدت بالنسبة اليّ ضربـاً مـن الواجـب القسري، كنت أريد أن أخرج هذا الشيطان الذي كان يعـذب دواخلـي، كنت أريد أن أضع همومي على الورق - وفي النهاية، وبعد قليل من الـتردد أدنيت المصباح وشرعت على النحو التالي :-

* * * * *

كنت أعتقد دائماً أن الصمت خير الأمور، وأن الأفضل للمرء أن يكـون مثل مالك الحزين الذي يجلس على شاطئ البحر باسطاً جناحيه نافشاً ريشـه وحيداً - ولكن الأمر الآن لم يعد في يدي لأنه قد وقـع المحـذور - فمـن يدري، لعل زمرة من العسس السكارى يأتون الآن أو بعد سـاعة لإلقـاء القبض عليّ - لست راغباً في إنقاذ جثتي، علاوة على أنه لم يعد ثمة مجـال للإنكار؛ ولنفرض كذلك أنني أزيل بقع الدم إلاّ أنني قبل أن أقع في أيديـهم سأشرب كأساً من قارورة الشراب تلك، شرابي الموروث الذي وضعته علـى الرفّ.

أريد الآن أن أضع حياتي كلها في يدي وأعصرها مثل عنقـود عنـب، وأقطّر عصارها، كلاّ، بل نبيذها قطرةً قطرةً في حلق ظلّي الجاف كمن يقطّر الماء في حلق شخص يحتضر. فقط أريد قبل أن أذهب، أن أجسد على الورق آلامي وهمومي التي تآكلتني في زاوية هذه الغرفة مثل الجذام قطعةً قطعـةً -.



لأنني بهذه الطريقة أستطيع أن أرتب أفكاري وأنظمها على نحو أفضل – هل أرمي الى كتابة وصية؟ أبداً، فلا مال عندي يستولي عليه الديوان، ولا دِين عندي يذهب به الشيطان[١٢]، فماذا والحالة هذه، يكون ذا قيمة في نظري مما هو على وجه الأرض؟ ذاك الذي كان حياةً تخلّيت عنه، سمحتُ وأردت أن يخرج من يدي ويذهب، وبعد أن ذهبت أنا نفسي، فإلى الجحيم، إنْ يشأْ أحد أن يقرأ قصاصات ورقي فليقرأ، وإنْ لم يشأْ ففي ستين ألف داهية – فأنا أكتب من أجل هذه الحاجة للكتابة التي غدت على عجل ضرورية لي – انني محتاج، محتاج أكثر من ذي قبل الى أن أربط أفكاري بشخصي، بظلّي – هذا الظل المشؤوم الذي انحنى على الجدار أمام ضوء المصباح وكأنه يقرأ بعناية ما أكتبه ويبتلعه – ان هذا الظل بكل تأكيد أفضل مني إدراكاً! لا أجيد الحديث سوى مع ظلي، وهو الذي يشجعني على الحديث، ولا يستطيع أن يعرفني سواه، هو قطعاً يدرك... أريد بعد أن أقطّر عصارة، كلاّ، بل نبيذ حياتي المرّ قطرةً قطرةً في حلق ظلي، الجاف، أن أقول له: "هذه هي حياتي!".

ان كل من رآني أمس، قد رأى شابّاً مهزوماً عليلاً، ولكنه اليوم يرى عجوزاً أحدب له شعر أبيض وعينان مقرّحتان وشفة يسيل لعابها. انني أخاف أن أنظر من نافذة حجرتي الى الخارج، أو أنظر الى نفسي في المرآة. لأنني أرى ظلالي المضاعفة في كل مكان – ولكنني لكي أستطيع أن أشرح حياتي لظلي الأحدب ينبغي أن أروي حكاية – آه، كم هنالك من حكايات تدور حول

---

(١٢) مثل فارسي.



أيام الطفولة، وحول الحب والوصال والأعراس والموت وليس أي منها حقيقياً
- لقد سئمت من القصص وتدبيج الكلام.

سوف أحاول أن أضغط هذا العنقود، ولكن هل سيكون فيه أدنى أثر من حقيقة؟ - لم أعد أعرف ذلك - لا أدري أين أنا، وقطعة السماء هذه التي تعلو رأسي أو بضعة أشبار الأرض التي أجلس عليها أهي لنيسابور أم لبلخ أم لبنارس[١٣] - مهما يكن فلست واثقاً من شيء.

انني من فرط ما رأيت من أمور متناقضة وما سمعت من كلام متنوع، ومن كثرة ما حكَّ بصرُ عيني سطحَ الأشياء المختلفة - هذه القشرةَ الرقيقة والصلبة التي تختفي الروح تحتها، لم أعد الآن أصدّق شيئاً - ها أنا الآن أشكُّ في وزن الأشياء وبراهينها، وفي الحقائق الواضحة الساطعة - لا أدري لو أنني أدُقُّ أصابعي في المهراس الحجري الموضوع في إحدى زوايا فِناء بيتنا وأسألها: أأنتِ ثابتة محكمة أينبغي أن أصدق جوابها إن أجابت بالإيجاب، أم لا.

أأنا موجود مستقل ومحدّد؟ لا أدري - ولكني الآن إذ نظرت في المرآة لم أعرف نفسي. كلاّ، ان ذلك الـ "أنا " قد مات من قبل، وتحلّل، ولكن لا وجود للسدود والقيود بيننا. ينبغي أن أروي قصتي ولكني لا أدري من أين ينبغي البدء - فالحياة كلها قصة وحكاية. ينبغي أن أضغط عنقود العنب وأسكب عصارته ملعقةً ملعقةً في الحلق الجاف لهذا الظل العجوز.

---

(١٣) أسماء مدن.



من أين ينبغي البدء؟ لأن كل الأفكار التي تغلي في رأسي في الوقت الحاضر هي بنت هذه اللحظة. ليس لها ساعة ودقيقة وتاريخ – ان حادثاً وقع أمس قد يكون عندي أقدم وأقلّ تأثيراً من حدث وقع قبل ألف سنة. لعل انقطاع كل روابطي بعالم الأحياء جعل ذكريات الماضي تتشكل أمامي – الماضي، المستقبل، الساعة، اليوم، الشهر والسنة كلها في نظري سواء. مراحل الطفولة والشيخوخة المختلفة ليست عندي سوى كلام فارغ – وهي لا تنطبق الاّ على الناس العاديين، على السوقة – السوقة بالتشديد هذه الكلمة بالذات هي ما كنت أبحث عنه، على السوقة الذين حياتهم ذات مواسمَ وحدودٍ معينة، مثل فصول السنة وتقع في المنطقة المعتدلة للحياة. ولكن حياتي كانت دوماً ذاتَ فصل واحد وحالة واحدة وكأنها في منطقة باردة وفي ظلمة الماضي الخالدة، في حين أن في خلال جسمي دائماً شعلة تتلظى وتذيبني كالشمع.

بين الجدران الأربعة التي تشكل غرفتي والحصار الذي ضُرب حول حياتي وفكري، تذوب حياتي مثل الشمع شيئاً فشيئاً، كلاّ، لقد أخطأت، انها مثل قُرمة حطب طريّ أُلقي بها في ركن من الموقد فانشوتْ وتفحمت بنار الحطب الآخر، ولكنها لم تحترق ولم تظلّ غضة طرية، وانما اختنقت بالدخان وأنفاس الآخرين. ان غرفتي مثل سائر الغرف قد بنيت من الآجرِّ النّيئ فوق خرائب آلاف البيوت القديمة، بدنها مبيّض ولها حاشية عليها كتابات ونقوش – انها كالمقبرة تماماً – وأقلّ أمورها وجزئياتها يكفي لأن تشغل تفكيري بها ساعات طويلة، مثل العنكبوت عند زاوية الجدار. فلما قلّت العناية بي منذ



لزمت الفراش، أصبح وتدُ زريبة مدقوقٌ في الجدار مكاناً لتعليق سريري الأرجوحي أنا وامرأتي وربما تحمَّلَ بعد ذلك وزن أطفال آخرين. وأسفل الوتد بقليل نشزت طبقة من مِلاط الجدار وفاحت منها روائح الأشياء والكائنات التي كانت في هذه الحجرة من قبل، بحيث لم يستطع أي حادث أو أية ريح أن يبدد هذه الروائح القبيحة الكسولة الكثيفة: رائحة عرق أجساد، رائحة أمراض مزمنة، بخر أفواه، رائحة أقدام، رائحة بوْل حادة، رائحة بصل حارّ، رائحة غلي، رائحة خُبّاز (نبات)، رائحة غرفة فتى بلغ الحلم مؤخراً، الأبخرة التي جاءت من الزقاق وروائح الموتى أو المحتضرين الذين ما يزالون على قيد الحياة وهم يحتفظون بميزاتهم الخاصة بهم. وهنالك الكثير من الروائح الأخرى التي لا يُعلم أصلها ومنشؤها ولكنّ آثارها ما تزال قائمة.

لغرفتي ملحق، مخزن مظلم ونافذتان صغيرتان تتصلان بالخارج، بعالم السوقة. تفتح احداهما على فناء البيت، والأخرى نحو الزقاق - ومن هنا فهي تربطني بمدينة (ري) - المدينة التي يسمونها عروس الدنيا والتي تضمّ الألوف من الأزقة والأزقة الفرعية والبيوت الواطئة، ومدرسة وخاناً للقوافل - المدينة التي تُعَدُّ أعظمَ مدن العالم، تتنفس وتَحيى وراء حجرتي. هنا في ركن حجرتي حين أغمض عيني فإن ظلال المدينة الغامضة والمتداخلة: تلك التي أثّرت فيَّ بقصورها ومساجدها وحدائقها تتجسم جميعاً أمام ناظري.

هاتان النافذتان تربطانني بالعالم الخارجي، بعالم السوقة. ولكن في حجرتي مرآة على الجدار أرى صورتي عليها والمرآة في حياتي المحدودة أهمُّ من عالم السوقة الذي لا علاقة له بي. من كل مشاهد المدينة توجد أمام نافذة حجرتي



ملحمة حقيرة تستهلك خروفين كل يوم - وفي كل مرة أنظر فيها من النافذة الى الخارج أرى القصاب، كل يوم في الصباح الباكر يؤتى أمــــام الملحمـــة بكديشين[١٤] أسودين نحيلين - كديشين محمومين يسعلان سعالاً عميقاً جافاً وأيديهما العجفاء تنتهي بحوافر، وكأنهما طبقاً لشريعة متوحشة قد قُطعــــت أيديهما وغُمست في الزيت المغلي، وعلى جانبيهما تتدلّ جثــث الخــراف. يداعب القصاب لحيته المحناة بيده الدهنية، يقيّم جثث الخـــراف أولاً بعـــين المشتري، ثم يختار اثنتين منها، يرطّل إلْيَةَ كل منـــــهما بيـــده، ثم يأخذهمـــا ويعلقهما بكلاّب دكانه - ويمضي الكديشان في طريقهما وهمـــا يلـــهثان. عندئذٍ يداعب القصاب هذه الجثث المدمّاة بأعناقها المصقولة وعيونها الصريحة وجفونها الملطخة بالدم والتي جحظت من جماجمها المزرقة، ويمســـح بيـــده عليها، ثم يتناول سكيناً قبضتها من العظم فيقطّع جسديْ الخروفين بعنايـــة ثم يبيع اللحم المتروع العظم لعملائه وهو يبتسم. ويا للذّة التي ينجز بها كل هذه الأعمال! اني وثق من أنه يلتذّ وينتشي كذلك - وذلك الكلب الأصفر المتنمر الذي احتكر حارتنا لنفسه والذي لا يكف عن النظر الى يدي القصاب بعنـق مائلة وعينين بريئتين نظرات ملؤها، الحسرة، ذلك الكلب أيضاً يعرف كـــل هذا - ذلك الكلب أيضاً يعرف أن القصاب يستمتع بعمله!

وتحت طاقٍ قريب يجلس عجوز عجيب وقد فرد أمامه بساطاً، وضع عليه منجلاً، ونعلين، وخرزات مختلفة ملونة، وسكيناً، ومصيدة فئران، وكماشـــة

---

(١٤) كديشين: حصانين غير جوادين (عامية).



صدئة، وملعقة صغيرة لسكب الماء في المحبرة، ومشطاً أسنانه مكسرة، ومجرفة صغيرة، وإبريقاً مطلياً بالميناء غطاه بمنديل وسخ. لقد طالعته من وراء نافذتي ساعات، أياماً، شهوراً، انه جالس دوماً في وضع واحد، بوشاح عنق قذر وعباءة شُشْترية[١٥]، ياقته مفتوحة وقد برز من خلالها شعر صدره الأبيض، وجفناه مقرحان يتآكلهما مرض صلف ملحاح، وعلى ساعده طلسم. وفي ليالي الجمعة فحسب يقرأ القرآن بأسنانه الصفراء والساقطة - كأني به يكسب قوته بهذه الوسيلة وحدها؛ لأني لم يسبق لي أبداً أن شاهدت أحداً يشتري منه - لكأن كل الكوابيس التي شاهدتها كان وجه هذا الرجل على الأغلب فيها. أي أفكار سمجة حمقاء نبتت وتنبت مثل العشب الضار خلف هذه الجبهة الضيقة التي له، وداخل هذا الرأس، هذا الانتفاخ الحليق الملفوف بعمامة بيضاء مصفرّة؟ كأن المائدة المواجهة للعجوز وبساطه بما حواه من خردوات على ارتباط خاص بحياته. لقد عزمت عدة مرات على أن أذهب فأكلمه أو أشتري شيئاً مما يعرضه على بساطه، ولكني لم أجرؤ.

قالت لي مربيتي ان هذا الرجل كان في عهد شبابه خزّافاً و لم يحتفظ بغير هذا الابريق وهو اليوم يكسب قوته من بيع الخردوات.

هؤلاء هم رابطتي بالعالم الخارجي، أما العالم الداخلي: فلم يبق لي منه سوى مربيتي وزوجة فاسدة. ولكن مربيتي هي أيضاً مربية زوجتي، مربيتنا كِلَيْنا - لأننا - أنا وزوجتي - لم نكن قريبين حميمين فحسب - بل انّ (الأمّ

---

[١٥] عباءة شُشترية: نسبة الى شوشتر.



العزيزة) – مربِّيتنا – قد أرضعتنا معاً. فأمُّ زوجتي أصلاً هي أمي في الوقت ذاته – لأني لم أرَ أمي وأبي، وأمها، تلك المرأة الفارعة الطول رمادية الشعر هي التي ربتني. وقد احببت أمها – الأمّ العزيزة – كما أحب أمي، ومن أجل هذا الحب تزوجت ابنتها.

لقد سمعت عن أبي وأمي حكايات مختلفة، ولا أتخيل من هذه الحكايات التي روتها لي مربيتي سوى واحدة – قالت لي مربيتي إن: أبي وعمي كانا توأمين، وكانا متطابقين متماثلين بحيث لم يكن تمييز أحدهما عن الآخر بالأمر السهل. وعلاوة على ذلك كانت توجد بينهما رابطة معنوية واحساس بالتعاطف بمعنى أنه لو اعتلّ احدهما لاعتلّ الآخر – وكما يقول الناس كانا تفاحة قسمت نصفين – وفي النهاية – يختار كلاهما العمل بالتجارة ويسافران الى الهند في سن العشرين، وصارا يأخذان بعض الأصناف الموجودة في (ري) ويبيعانها في الهند، وهي من قبيل الأقمشة المختلفة مثل: الأقمشة المعرقة والقطنية، والجبب والشالات والإبر والأوعية الخزفية والمنظفات وأغلفة حافظات الأقلام. كان أبي يقيم في مدينة (بنارس) ويرسل عمي في أعمال تجارية الى مدن الهند الأخرى – وبعد مدة يقع والدي في حب عذراء تدعى (بوغام داسي) وهي راقصة في معبد (لينغَم). وكان عمل هذه الفتاة هو الرقص الديني أمام صنم (لينغم) الضخم، وخدمة المعبد الوثني – فتاة لطيفة سمراء ناهدة الصدر، عيناها واسعتان مائلتان، ولها حاجبان رفيعان متصلان معاً، رسمت بينهما خالاً أحمر.



استطيع الآن أن أتخيل أن (بوغام داسي) أي أمي، بالساري الحريري المطرز بالذهب، والصدر المفتوح، وعصابة الرأس الحريرية الشفافة، والشعر الغزير الأسود مثل ليل أزلي حالك والمعقود خلف رأسها، وبالأساور على معصميها والخلاخيل على كاحليها، وبالحلقة الذهبية التي علقتها من منخرها، وبالعينين الواسعتين السوداوين الثملتين المواربتين، والأسنان اللامعة، كانت ترقص بحركات وئيدة موزونة على لحن آلات موسيقية مختلفة، لحن رائق رتيب يعزفه رجال عراة عقدوا على رؤوسهم عمائم، لحن يفيض بالمعاني احتشدت فيه واختُزِلت كل أسرار السحر والخرافات وآمال الناس في الهند وآلامهم، فكانت (بوغام داسي) بالحركات المتناسبة والإيماءات المثيرة - الحركات المقدسة - تتفتح مثل بتلات الورود، تُرعِش كتفيها وذراعيها، تنحني ثم تتجمع من جديد، هذه الحركات التي كانت تتضمن مفهوماً خاصاً وتتكلم دون لسان، أيّ تأثير يمكن أن تكون قد أوجدته في أبي - خصوصاً وأن رائحة عرقها الحامض أو الحار كالفلفل، المختلطة بعطر السوسن البري وزيت الصندل تعمق المفهوم الحسي لهذا المشهد - العطر الذي تفوح منه رائحة عصارات الأشجار البعيدة والذي يبعث الحياة في الأحاسيس النائية والمختنقة - رائحة علبة دواء، رائحة الأدوية التي تحفظ في غرفة العناية بالأطفال والتي تجئ من الهند - الزيوت المجهولة من بلاد عريقة غنية بالمعاني والعادات والتقاليد لا بدّ انه كان لها رائحة الأدوية التي كانت تغلي لي فأشربها. كل هذا أيقظ في أبي الذكريات البعيدة والمقتولة - ويصير أبي متيماً



ببوغام داسي الى حدّ يجعله يعتنق ديانة الفتاة الراقصة، ديانة (لينغم)، ولكن بعد مدة، وإذ تصبح الفتاة حاملاً تقصى عن خدمة المعبد.

كنت قد وُلدتُ للتوّ حين عاد عمي من سفره من بنارس، ولكن يبدو أن ذوقه في الحب مطابق كذلك لذوق أبي، إذ يصير عاشقاً لأمي متيماً بحبها، وفي النهاية يخدعها، يساعده في ذلك شبهه الظاهري والمعنوي لأبي. وعندما ينكشف الأمر تقول أمي انها سوف تتركهما كليهما الاّ اذا احتازا اختبار أفعى الكوبرا ومن يبقَ منهما على قيد الحياة فسوف تصبح له.

كان الاختبار على النحو التالي، ينبغي أن يُلقى كل من أبي وعمي في حجرة مظلمة فيها وكر أفاعٍ، فمن تلدغه الأفعى فسوف يصرخ بالطبع، عندئذٍ يفتح الحاوي باب الغرفة وينقذ الآخر فتؤول (بوغام داسي) اليه.

قبل أن يُلقى هما في الزنزانة يرجو أبي (بوغام داسي) أن ترقص أمامه مرة أخرى، تؤدّي رقصة المعبد، فتوافق، وترقص على لحن ناي الحاوي قدّام ضوء المشعل بحركات موحية موزونة مرنة، وتتلوى مثل الأفعى - ثم يُطرح أبي وعمي مع الأفعى في غرفة خاصة - وبدلاً من الصرخة الباعثة على الاضطراب، ترتفع أنة مختلطة بضحكة تبعث الرجفة في البدن، صرخة مجنونة - وإذْ يُفتح الباب يخرج عمي من الغرفة - ولكن ملامح وجهه قد غدت ملامح وجه شيخ هرم وشعر رأسه شاب من هول صوت انزلاق وفحيح الأفعى الغاضبة التي كان لها عينان مستديرتان تقدحان شرراً وأنياب تقطر سمّاً زعافاً، ويتألف جسمها من عنق طويل ينتهي بانتفاخ شبيه بملعقة، ورأس صغير، يخرج عمي من الغرفة أبيض الشعر من الخوف - وتصبح (بوغام



داسي) وفقاً للشرط والعهد ملكاً له - وثمة شيء رهيب هو أنه لا يُعلم من الذي ظل بعد الاختبار على قيد الحياة، أهو أبي أم عمي.

وحيث أنه في نتيجة هذا الاختبار قد حدث عنده اختلال عقلي فقد نسي حياته السابقة تماماً و لم يتعرف على الطفل. من هنا فقد حسبوه عمي - أليست كل هذه الأسطورة مرتبطة بحياتي، أو ان انعكاس هذه الضحكة التي تبعث الرعدة في البدن ورهبة هذه التجربة لم تتركا أثرهما فيّ و لم تصبحا مرتبطتين بي؟

ومنذئذٍ لم أكن سوى غريب ومستهلك للخبز - وفي النهاية يعود عمي أو أبي مع (بوغام داسي) من أجل أعماله التجارية الى مدينة (ري)، ويأخذني ويسلمني الى أخته التي هي عمتي.

قالت مربيتي ان أمي قد سلّمتْ لعمتي عند وداعها لها قارورة شراب أرجواني حُلّ فيه سمّ أفعى هندية.

ماذا تستطيع (بوغام داسي) أن تترك شيئاً افضل لطفلها على سبيل التذكار؟ الشراب الأرجواني، إكسير الموت الذي يهب الراحة الأبدية - لعلها هي أيضاً قد عصرت حياتها مثل عنقود عنب وجادت عليّ بشرابها - من السم ذاته الذي قتل أبي - الآن أدرك أية هدية سفر ثمينة أعطتني!

هل أمي حية ترزق؟ قد تكون الآن وأنا مشغول بالكتابة، في ميدان مدينة هندية نائية تتلوى مثل أفعى وترقص على ضوء مشعل - لكأن الأفعى قد لدغتها، وتجمع الناس الفضوليون عراةً صغاراً وكباراً حولها، في حين جلس أبي أو عمي بجانب الميدان أحدب أبيض الشعر وأخذ ينظر اليها وهو يذكر



الزنزانة وصوت فحيح الأفعى الغاضبة وانزلاقها، إذ ترفع رأسها، وتلمع عيناها ويصير عنقها مثل مغرفة الطعام ويظهر الخطّ الذي يشبه النظارة خلف عنقها وقد غدا رمادياً داكناً.

على أية حال، كنت طفلاً رضيعاً حين أودعوني في حضن هذه (الأم العزيزة) فكانت (الأم العزيزة) ترضع ابنة عمتي أيضاً وهي امرأتي الفاسدة هذه بعينها. وقد نشأتُ في هذا البيت على يدي عمتي تلك المرأة الفارعة الطول التي كان شعرها الرمادي على جبينها، الى جانب ابنتها الفاجرة هذه.

منذ أن بدأت أعي كنت أعُدّ عمتي في مقام أمي وأحبها الى درجة انني تزوجت فيما بعد ابنتها، أختي في الرضاعة لأنها كانت تشبهها.

أي انني اضطررت الى أن أتزوجها؛ لقد أسلمتْ هذه الفتاة الي نفسها مرة واحدة وحسب، ولن أنسى ذلك أبداً، وكان على فراش أمّها الميتة - كان قد انقضى من الليل شطر طويل، نهضتُ حين نام كل من في البيت، وكنت أرتدي قميصاً وسروالاً داخلياً، ودخلت حجرة الميتة لإلقاء النظرة الأخيرة عليها. رأيت شمعتين عنبريتين تحترقان عند رأسها. وعلى بطنها وُضع مصحف كي لا يحل الشيطان في جسدها - حين أزحت القماشة التي على وجهها رأيت عمتي بطلعتها الوقور الأخاذة. لكأنّ كل هوى أو علاقة أرضية قد انحلاّ واختفيا من وجهها. كان المشهد يسلمني الى الخشوع والإجلال. ولكن الموت بدا لي في الوقت نفسه حدثاً عادياً وطبيعياً - كانت ابتسامة مشوبة بالسخرية قد تجمدت عند زاوية شفتها. أردت أن أقبّل يدها وأغادر الغرفة، ولكني التفتت لأرى متعجباً تلك الفاجرة نفسها التي هي الآن زوجتي



قد دخلت، وأمام الأم الميتة، أمها، قد ألصقت جسدها بي بحرارة شديدة، وأخذت تجذبني نحوها وتمطرني بالقبل! كنت أودّ من فرط الحياء أن تنشق الأرض وتبتلعني. ولكني لم أعرف ما ينبغي أن أفعل، كانت الميتة بأسنانها المجلوة وكأنها قد سخرت منا - بدا لي أن تعبير البسمة الهادئة على وجه الميتة قد تغير - ضممتها اليّ دون إرادة وقبّلتها، ولكن في هذه اللحظة انزاحت ستارة الغرفة المجاورة ودخل زوج عمتي، والد هذه الفاجرة الأحدب الملفع بوشاح العنق.

أطلق ضحكة جافة منفرة يجفل سامعها، وينتصب شعر بدنه، ضحك وكتفاه تهتزان، ولكنه لم ينظر نحونا. وددت من فرط الخجل أن أغور في الأرض، ولو كنت أستطيع لصفعت الميتة صفعة شديدة على وجهها لأنها كانت تحدجنا بنظرة ساخرة. يا للعار! عدوت أخرج من الغرفة مذعوراً - بسبب هذه الفاجرة عينها - لعلها قد رتبت هذا الأمر كي أتزوجها. رغم اننا كنا أخاً وأختاً في الرضاع، الاّ انني اضطررت الى أن أتزوجها كي أنقذهم من الفضيحة.

ولأن هذه الفتاة لم تكن عذراء، لم أكن أعرف ذلك - لم أستطع أصلاً أن أعرف - بل قيل لي - ففي ليلة الزفاف عينها حين خلونا بنفسينا لم تأبه برجائي وتوسلاتي ولم تتجرد. قالت: "لست طاهرة"[١٦]. ولم تتح لي الاقتراب منها أبداً، أطفأتْ المصباح ومضت فنامت في الركن القصي من

---

[١٦] تقصد ما يصيب النساء شهرياً.



الغرفة. كانت ترتجف مثل الصفصاف الرجراج، وكأنها قد طرحت في جبّ مظلم مع تنّين - أمر لا يصدقه أحد، أي انه غير معقول. لم تسمح بأن أطبع قبلة على خدها. في الليلة الثانية مضيت فنمت على الأرض حيث نمت في الليلة الأولى، وفي الليالي التالية فعلت الشيء ذاته، لم أكن أجرؤ - خلاصة القول مضت مدة طويلة وأنا أنام على الأرض في الركن القصي من الغرفة - من يصدق؟ شهرين، كلاّ، شهرين وأربعة أيام نمت على الأرض بعيداً عنها ولم أجرؤ على الاقتراب منها.

كانت قد هيّأت ذلك المنديل المعبِّر[١٧] من قبل، لطخته بدم حمامة، لا أدري. لعله كان المنديل اياه الذي حفظته منذ ليلة حبها الأولى كي تمعن في السخرية مني - عندئذٍ كان الجميع يباركون لي وهم يتغامزون، لا بدّ أنهم كانوا يقولون في سرهم: "هل فتح المخبور القلعة الليلة البارحة؟". ولا يبدو على وجهي المبارك انني فهمت شيئاً - يضحكون عليّ - يضحكون على غفلتي. آليت على نفسي أن أكتب كل ذلك ذات يوم.

بعد أن أدركتُ أن لديها عدداً لا يحصى من الفاجرين وأنها ربما تكرهني لأن المأذون قد قرأ عدة كلمات بالعربية وعقد لي عليها، لعلها كانت تريد أن تكون حرة. في النهاية عزمتُ ذات ليلة على الاقتراب منها بالقوة - ونفذت ما عزمت عليه. ولكنها بعد صراع مرير نهضت وانصرفت، واكتفيت بإرضاء نفسي في تلك الليلة بالنوم والتقلب في فراشها الذي كان

---

[١٧] منديل ليلة الزفاف، الذي يلطخ بالدم، دليلاً شعبياً على عذرية العروسة.



قد تشرب حرارة جسدها وعبق برائحتها. كانت تلك الليلة هي الوحيدة التي نعمتُ فيها بنوم مريح - بعد تلك الليلة فصلتْ حجرتها عن حجرتي.

في الليل حين كنت أدخل البيت، لا تكون قد جاءت بعد، لم أكن أعرف هل جاءت أم لا - لم أكن أصلاً أريد أن أعرف - لأنني كنت وما أزال محكوماً بالعزلة، محكوماً بالموت. كنت أريد مهما كلف الأمر أن أقيم علاقة مع فاجريها، لن يصدّق ذلك أحد - كنت أترصد كل من أسمع أنه يعجبها؛ فأذهب وأتحمل ألف نوع من الذلة والمهانة، فأتعرف عليه، وأتملقه، وألتقطه لها وأحضره. وأيّ فجرة يكونون؟: بياع كروش، فقيهاً، بياع كبد مشوية، رئيس العسس، مُقَنّياً[18]، تاجراً، فيلسوفاً، حيث كانت أسماؤهم وألقابهم تختلف عن بعضها ولكنهم جميعاً معاونو بياع رأس الخروف وأرجله المطبوخة. لقد كانت تفضّلهم عليّ جميعاً، لن يصدّق أحد مدى ما كنت أحقر به نفسي وأذلها من خنوع وتصاغر. كنت أخشى أن تفرّ زوجتي من يدي. كنت أريد أن أتعلم من فاجريها طريقة السلوك والأخلاق والفتنة ولكني كنت قواداً تعساً كل الحمقى يضحكون على ذقنه - كيف كان بوسعي أصلاً أن أتعلم سلوك وأخلاق الرعاع؟ أعرف الآن أنها كانت تحبهم لأنهم كانوا فاجرين حمقى متعفنين. لقد كان عشقها أساساً توأماً للقذارة والموت - هل كنت حقاً ميالاً للنوم معها، هل جعلتني ملامحُها الظاهرة أنجذب اليها، أم نفورُها مني أم غنجُها ودلالُها، أم الحبُّ والتعلقُ اللذان كنت

---

(18) المقنّي: حفار قنوات الري.



أكنّهما لأمها منذ طفولتي، أم هي كل هذه الأمور متضافرة معاً؟ كلاّ، لست أدري. وانما أعرف شيئاً واحداً: ان هذه المرأة، هذه الغانية، هذه الساحرة، لا أدري أي سم قد سكبته في روحي، في كياني، فلم أكن أريدها وحسب، وانما كانت كل ذرة في كياني تحتاج الى كل ذرة في كيانها، وتصرخ انها تحتاج اليها. وكنت أتمنى بشغف أن أكون واياها في جزيرة ضائعة ليس فيها من بشر، وأتمنى زلزالاً أو عاصفة أو صاعقة من السماء، تفجر كل هؤلاء الرعاع الذين يتنفسون وراء جدران غرفتي ويتراكضون ويستمتعون؛ ولا يبقى سوى أنا وهي.

ألن تفضل علي عندئذٍ أي كائن حي آخر، أفعى هندية أو تنيناً؟ كنت أتمنى أن أمضي معها ليلة واحدة ثم نموت متعانقين - يخيل الي أن هذا كان الغاية السامية لوجودي وحياتي.

كان يبدو وكأن هذه الفاجرة يلذّ لها تعذيبي وتنتشي به، كأن الألم الذي كان يتأكلني لم يكن كافياً - في النهاية صرت عاجزاً تماماً ولزمت البيت - مثل ميت يتحرك. لم يكن أحد يعلم بالسر الذي بيننا، كانت مرضعتي العجوز التي غدت مؤنسة احتضاري تلومني - من أجل هذه الفاجرة كنت أسمع الهمس يدور وراء ظهري ومن حولي، كان يقال: "كيف تتحمل هذه المرأة المسكينة هذا الزوج المجنون؟". كان الحق معهم، فقد بلغتُ من المذلة حدّاً لا يصدق.



كنت أذوب وأضمحلّ يوماً عن يوم، أنظر الى نفسي في المرآة، وجنتـاي حمراوان وبلون اللحم المعلق بباب دكان القصاب - جسمي يفور بـالحمى، وعيناي أصبحتا ذابلتين مثيرتين للأسى.

كان يلذ لي وضعي الجديد هذا وكنت قد رأيت غبار الموت في عيـنيّ، كنت قد رأيت أنه ينبغي أن أذهب.

في النهاية أُخبِرَ الحكيم، حكيم الرعاع، طبيب العائلة الذي يزعم أنه قـد ربانا. دخل بعمامته البيضاء المصفرة ولحيته التي يبلغ عرضها عرض ثـلاث أكفّ. كان يفخر بأنه قد اعطى جدّي دواء يقوّي الباه، وصبّ في حلقـي الكراوية وسكّر النبات، وقدّم لعمتي قرفة صينية مسهلة. خلاصة القول، مـا إن دخل حتى جلس بجانب فراشي، جسّ نبضي، رأى لساني، وأمـر بـأن أشرب حليب أتان وماء شعير، وأن أتبخر كل يوم مرتين ببخـور اللبـان والزرنيخ - كما سلّم الى مربيتي عدة وصفات مستفيضة هي عبـارة عـن زهورات وزيوت عجيبة غريبة مثل: جذور القصب، الزيتون، رُبّ السـوس، الكافور، كزبرة البئر، زيت البابونج، زيت الإوزّ، بذر الكتان، وبذر الصنوبر وخزعبلات أخرى.

ازدادت حالتي سوءاً؛ ولم يكن هنالك سوى مربيتي، وهي مربيتها أيضـاً، بوجهها العجوز وشعرها الرمادي تجلس في ركن الغرفة، بجانب فراشي تمسح جبهتي بالماء البارد وتجلب لي الزهورات. كانت تتحـدث عـن الأوضـاع والأحداث في طفولتي وطفولة تلك الفاجرة. - قالت لي مثلاً: ان زوجـتي اعتادت منذ كانت في المهد أن تقضم دائماً أظافر يدها اليسرى، وتفعل ذلك



الى حدّ تقرح أصابعها. وكانت مرضعتي تحكي لي أحياناً بعض الحكايات - وكان يبدو لي ان هذه القصص تعيد سنوات عمري الى الوراء وتولد فيّ حالة طفولية. لأنها كانت تتعلق بذكريات تلك الفترة - عندما كنت صغيراً جداً أنام في الحجرة أنا وزوجتي في المهد جنباً الى جنب - مهد كبير مزدوج. أذكر تماماً أنها كانت تروي هذه القصص عينها. الآن أصبح بعض أجزاء هذه القصص التي لم أكن أصدقها من قبل، أمراً طبيعياً بالنسبة اليّ.

لأن المرض ولّد فيّ عالماً جديداً، عالماً مجهولاً، غامضاً ومفعماً بالصور والألوان والرغبات التي لم أكن أتصورها وأنا سليم معافى، كنت أحس في نفسي نزاعات وصراعات هذه الحكايات الأسطورية بنشوة وانفعال لا يوصفان - كنت أحس أنني صرت طفلاً والآن بالذات وأنا منهمك بالكتابة، أشارك في الأحاسيس، وكلّ هذه الأحاسيس يتعلق باللحظة الحاضرة وليست مما يخصّ الماضي.

كأن حركات وأفكار وآمال وعادات الناس الغابرين، التي نقلت الى الأجيال اللاحقة عبر هذه الأساطير والحكايات، كانت أحد واجبات الحياة. مضت آلاف السنين وهم يتحدثون بهذه الأحاديث ذاتها. يمارسون هذه المضاجعات ذاتها، وتشغلهم هذه المشاغل الطفولية ذاتها - أليست الحياة كلها قصة مضحكة وأسطورة حمقاء غير معقولة؟ ألست أكتب أسطورتي وقصتي الذاتية؟ القصة لا تعدو كونها مهرباً لآمال مَن لم تتحقق آماله. الآمال التي لم تُبلَغ. الآمال التي تَصَوَّرَها صُنّاع الحكايات طبقاً لعقليتهم المحدودة والموروثة.



ليتني كنت أستطيع أن أنام بسلاسة كما كنت أفعل حين كنت طفلاً جاهلاً - نوماً مريحاً غير مضطرب - عندما كنت أستيقظ كانت وجنتاي تبدوان حمراوين بلون اللحم أمام دكان القصاب - كان جسمي محموماً وكنت أسعل - يا له من سعال عميق مخيف! سعال لم يكن معلوماً من أي بئر ضائعة في جسمي ينبعث، مثل سعال الكديشين اللذين كانا يحضران جثث الخراف للقصاب في الصباح الباكر.

أذكر بدقة أن الجو كان مظلماً تماماً، كنت قد فقدت الوعي بضع دقائق. كنت أحدث نفسي قبل أن يغلبني النعاس - كنت عند ذلك أشعر، بكل تأكيد أنني قد صرت طفلاً وأنني أنام في المهد. أحسست ان ثمة شخصاً قريباً مني، كان قد مضى وقت طويل منذ نام جميع من في البيت. كان الوقت قبيل طلوع الفجر والمرضى يعرفون أنه في هذا الوقت يبدو كأن الحياة تُجذب خارج حدود العالم - كان قلبي يدق بعنف، ولكني لم أكن خائفاً، عيناي مفتوحتان، ولكني لا أرى أحداً، لأن الظلام كان كثيفاً ومتراكماً - مضت بضع دقائق، خطرت لي فكرة مريضة، قلت في نفسي: "لعلها هي!" في هذه اللحظة شعرت بيد باردة ببرودة الثلج توضع على جبيني الملتهب.

أجفلت؛ سألت نفسي عدة مرات: "أليست هذه يد عزرائيل؟" وغطست في النوم - في الصباح حين استيقظت أخبرتني مربيتي بأن فتاتي (أقصد زوجتي، تلك الفاجرة) كانت قد جاءت حتى فراشي ووضعت رأسي على ركبتها، وهدهدتني مثل طفل - كأن حسَّ رعاية الأمومة قد استيقظ فيها،



ليتني قد متّ في تلك اللحظة عينها - لعل طفلها الذي كانت حاملاً به قد مات، هل كان طفلها قد وُلد؟ لم أكن أدري.

في هذه الغرفة التي كانت تضيق عليّ لحظة بلحظة فتصبح أضيق من القبر، كنت دائم الانتظار لزوجتي، ولكنها لم تكن لتأتي أبداً. ألم تكن مسؤولة عن الوضع الذي وصلتُ اليه؟ ليس هزلاً، ثلاث سنوات، كلاّ، سنتان وأربعة أشهر، ولكن ما الأيام والشهور؟ بالنسبة اليّ لا معنى لها، بالنسبة الى شخص هو في القبر يفقد الزمن معنى وجوده - كانت هذه الغرفة مقبرة حياتي وأفكاري - لقد أصبح غريباً في نظري وغير ذي معنى كل جري الآخرين وأصواتهم وتظاهراتهم في حياتهم، حياة الرعاع الذين صيغوا جميعاً أجساماً وأرواحاً على شاكلة واحدة - منذ لزمت الفراش استيقظت في عالم غريب غير معقول بحيث لم أكن في حاجة الى عالم السوقة. عالم كان فيّ، عالم ملئ بالمجهولات، بدا وكأنني كنت ملزماً باستجلاء كل خباياه وتفحصها والتدقيق فيها.

في الليل حين كان وجودي يتماوج عند الحدّ الفاصل بين عالمين، وقبيل الدقيقة التي غصت فيها في نوم عميق أجوف كنت أرى حلماً - في طرفة عين كنت أقضّي حياة أخرى غير حياتي - كنت أتنفس في أجواء اخرى وكنت بعيداً. كأنني كنت أريد أن أهرب من نفسي وأن أغيّر مصيري - حين كنت أغمض عيني كان يتبدىّ لي عالمي الحقيقي - كان لهذه الصور حياتها الخاصة - كانت بحريّة تتلاشى وتظهر من جديد. كأن ارادتي لم تكن تؤثر فيها. ولكن هذا الأمر لم يكن أمراً مسلّماً، فالمشاهد التي كانت تتجسد



أمام ناظري لم تكن رؤيا عادية، لأنني لم أكن قد غفوت بعد. كنت بصمت وهدوء أفصل هذه الصور عن بعضها وأوازنها معاً. كان يبدو لي أنني لم أكن قد عرفت نفسي حتى ذلك الحين، وأن العالم بالنحو الذي كنت أتصوره به حتى الآن قد فقد مفهومه وقوته، وساد بدلاً منه ظلام الليل - لأنهم لم يكونوا قد علموني أن أنظر الى الليل وأن أحبّه.

لا أدري إن كان ساعدي في هذا الوقت خاضعاً لي أم لا - كنت أظنّ أنني لو أطلقت العنان ليدي لأخذت تعمل تلقائياً بواسطة محرك مجهول، دون أن أقدر على التدخل والسيطرة على حركاتها. لو لم أكن دائم المراقبة لكل جسدي متنبّهاً اليه دون إرادة، لكان قادراً على الإتيان بأعمال لم أكن أتوقعها أبداً. كان هذا الشعور قد تولد لديّ من عهد بعيد بأنني أتحلل وأنا حيّ أُرزق. وليس جسمي فحسب، بل انّ روحي كانت دائمة التعارض مع قلبي و لم يكونا ليتصالحا - كنت أمرّ دوماً بنوع من التفسخ والتحلل الغريب - وأفكر أحياناً في أشياء لم أكن قادراً على تصديقها، أنا نفسي. كان يتولد لدي حيناً إحساس بالشفقة. في حين أن عقلي كان يلومني. كنت في أغلب الأحيان حين أكلم أحداً، أو أفعل فعلاً، أدخل في النقاش في موضوعات مختلفة، وتكون حواسّي في مكان آخر وأكون مشغولاً بفكرة أخرى وفي سرّي ألوم نفسي وأعنّفها - كنت كتلة في حالة تفسخ وتحلل. كأنني دوماً كنت هكذا وسوف أظلّ مزيجاً عجيباً غير متناسب...

الشيء الذي كنت أشعر به غير قابل للتحمل أنني بعيد عن كل هؤلاء الناس الذين كنت أراهم وأعيش بينهم، ولكن شَبَهاً ظاهرياً، شَبَهاً غامضاً



بعيداً، وقريباً في الوقت ذاته كان يربطني هم - احتياجات الحياة المشـــتركة هذه هي التي كانت تقلل من تعجبي - والشبه الذي كان يعذبني أكثر من أي شيء آخر هو أن الرعاع معجبون مثلي بهذه الفاجرة، زوجتي، وأنها راغبـــة فيهم أكثر من رغبتها فيّ - أؤكّد أن ثمة نقصاً في ذاتها أو في ذاتي.

سميتها فاجرة، لأنها لا يناسبها اسم مثله - لا أريد أن أقول: "زوجـــتي" لأنه لا وجود لصفة الزوجية بيننا وقد كنت أكذب على نفســـي. - لقـــد سميتها ومنذ الأزل فاجرة - لكنّ لهذا الاسم جاذبية خاصة. إنْ أكُـــنْ قـــد تزوجتها فذلك لأنها جاءت نحوي أوّلاً. وكان هذا من مكرهـــا واحتيالهـــا. كلاّ، لم تكن تُكِنُّ لي أي حبّ - كيف كان يمكن لها أصلاً أن تحبّ أحـــداً؟ امرأة شهوانية كانت تحتاج الى رجل لإطفاء شهوتها وآخر لتبادلـــه الحـــب وثالث لتعذبه - ولا أظنها تكتفي بهذا الثالوث. ولكنها اختارتني بالتـــأكيد لتعذبني. ولم تكن في الحقيقة قادرة على اختيار أفضل، أما أنا فقد تزوجتـــها لأنها كانت تشبه أمها - لأنها كانت تشبهني شبهاً مبـــهماً بعيـــداً. والآن لم أكن أحبها وحسب، ولكن كل ذرة في جسدي كانت تريدهـــا. أقـــول في جسدي، لأنني لا أريد أن أخفي مشاعري الحقيقية تحت غلاف موهوم مـــن العشق والهوى والإلهيات - لأني لا أتذوّق التورية الأدبية. كنت أظـــن أن في جسدي يتموج اشعاع ما أو هالة مثل الهالات التي يرسمونهـــا حـــول رؤوس الأنبياء، والهالة التي في جسدها لا بدّ أن هالتي العليلة الموجوعة تطلبها وتجذبها اليها بكل قواها.



حين تحسَّن حالي، عزمت على أن أنصرف. أنصرف وأضيّع نفسي، مثل كلب مجذوم يعلم أنه ينبغي أن يموت. مثل الطيور التي تختفي عن الأنظار عند دنوّ أجلها. - نهضت في الصباح الباكر، أخذت الكعكتين المحلاّتين اللتين كانتا على الرفّ، وتسللت هارباً من البيت دون أن ألفت أنظار أحد، هربت من المصيبة التي كنت واقعاً في قبضتها، عبرت دون هدف معين، من خلال الأزقة، هائماً من بين الرعاع الذين اكتست وجوههم جميعاً بالجشع راكضين وراء المال والشهوات - لم تكن بي حاجة لأن أراهم لأن واحداً منهم كان يمثل الباقين: كانوا جميعاً فماً وقد تعلقتْ بمؤخَّرِهِ قبضة من أمعاء تنتهي بأعضائهم التناسلية.

شعرت فجأة أنني غدوت أرشق وأخفَّ، كانت عضلات رجليّ تعمل وتسير بسرعة خاصة لم أكن أستطيع تصورها. كنت أحس أنني قد تحررت من كل قيود الحياة - رفعت كتفيّ، كانت هذه حركتي الطبيعية، وقد كنت آتيها في طفولتي كلما انزاحت عن كاهلي أعباء التعب والمسؤولية.

كانت الشمس تصعد وهي ترسل حرارتها اللافحة. هِمتُ في الأزقة الخالية، كنت أمرّ في طريقي على بيوت رمادية اللون بأشكال هندسية عجيبة غريبة: مكعبة، منشورية، مخروطية بنوافذ ضيقة واطئة مظلمة. كانت هذه النوافذ تبدو غير مملوكة لأحد ومؤقتة. كأنه لم يكن بوسع أي كائن حي أبداً أن يسكن في هذه البيوت.

كانت الشمس مثل شفرة ذهبية تنحت من حاشية ظلّ الجدار وتلتقط ما تنحته. الأزقة تمتدّ بين الجدران العتيقة المبيضة، كل مكان ساكن أبكم وكأن



كل العناصر كانت تراعي القانون المقدس للسكون الذي يسود الأجواء الحارقة، قانون الصمت. كان يبدو أن كل مكان ينطوي على أسرار خفية، بحيث لم تكن رئتاي تجرؤان على التنفس.

لاحظت فجأةً أنني قد خرجت من البوابة - حرارة الشمس تستخرج عرق جسدي بآلاف الأفواه الماصة. بدت شجيرات الصحراء تحت الشمس الساطعة بلون الزعفران. والشمس، مثل عين محمومة ترشق المشهد الميت الصامت باشعتها الحارقة. ولكن التراب والنباتات في هذا المكان كان لها شذى خاص، كانت رائحتها قوية الى درجة جعلتني أذكر دقائق أيام طفولتي - و لم تتجسم في خاطري وحسب كلمات وحركات ذلك العهد، بل لقد أحسست لحظةً أن هذه الفترة موجودة فيَّ، وكأنها قد حدثت أمس. سيطر عليّ نوع من الدوار المحبب، بدا الأمر وكأنني قد ولدت من جديد في عالم مفقود. كان لهذا الشعور خاصية مسكرة وقد أثر بي وتغلغل في أعماقي مثل شراب حلو معتق - في الصحراء كنت أعرف الأشواك، الأحجار، جذوع الأشجار وشجيرات الزعتر البري الصغيرة - كنت أعرف رائحة الأعشاب المألوفة - تذكرت أيامي الخوالي ولكن كل هذه الذكريات كانت قد نأت عني على نحو يشبه السحر وكان لهذه التذكارات معاً حياة مستقلة. في حين أنني لم اكن سوى شاهد بعيد عاجز، وأحس أن دوامة عميقة قد حفرت بيني وبينها. كنت أحس أن قلبي اليوم خالٍ وأن الشجيرات قد فقدت العطر السحري لذلك الزمان، وأشجار السرو غدت أكثر تباعداً والتلال أكثر جفافاً - والكائن الذي كُنْتُهُ في ذلك الحين لم يعد له وجود ولو استحضرته



وتحدثت معه لما سمع ولما فهم موضوعاتي. كان له وجه شخص كنت على معرفة سابقة به ولكنه لم يكن مني وبعضي.

بدت الحياة في نظري بيتاً خالياً يبعث الغم في النفس، وكان يمور في صدري اضطراب وكأنني كنت الآن ملزماً بأن أتفحص جميع غرف هذا البيت حافي القدمين - كنت أعبر غرفاً متداخلة متتابعة ولكني حين كنت أبلغ الحجرة الأخيرة مقابل تلك " الفاجرة "، كانت الأبواب تنغلق ورائي تلقائياً و لم يكن هنالك الاّ ظلال راجفة لجدران أُهمتْ زواياها تحرسني من حولي مثل جوارٍ وغلمان سود.

حين اقتربت من نهر (سورن) ظهر أمامي جبل أجرد جاف. ذكرني جرم الجبل الجاف الصلب بمرضعتي، لا أدري ما العلاقة التي كانت بينهما. عبرت من جانب الجبل، فبلغت مساحة صغيرة يسودها الصفاء وينتصب الجبل عند طرفها، وعلى الجبل تبدو قلعة عالية بنيت من آجر نيئٍ ثقيل.

في هذا الوقت شعرت بالتعب، مضيت نحو ضفة نهر (سورن) وجلست على الحصى في ظل شجرة سرو عتيقة.

كان المكان خالياً منعزلاً. ويبدو أن قدم أحد لم تطأه حتى الآن. التفتتُ فجأة لأرى طفلة تطلع من وراء أشجار السرو وتمضي نحو القلعة. كانت ترتدي ثوباً اسود نسيجه غاية في الخفة والظرافة وكأنه من حرير. كانت تقضم أظافر يدها اليسرى وتنسلُّ عابرة بحركة طليقة لا مبالية. خيّل اليّ أنني كنت قد رأيتها من قبل وأنني أعرفها ولكني لم أستطع من هذا البعد وتحت أشعة الشمس أن أحدد كيف اختفت دفعة واحدة.



تسمرتُ في مكاني، دون أن أقدر على الإتيان بأية حركة ولكني في هذه المرة رأيتها بأم ّ عيني وهي تمرّ من أمامي وتختفي. هل كانت كائناً حقيقياً أم كانت وهماً؟ أكنتُ رأيت حلماً أم كان ذلك في اليقظة؟ مهما جهدت في التذكر فلا طائل - أحسست رعدة خاصة تهزّ كاهلي، خيل اليّ أن ظلال القلعة فوق الجبل قد دبّت فيها الحياة في هذه الساعة وأن تلك البنيّة أحد السكان السابقين لمدينة (ري) القديمة.

بدا المشهد الذي كان أمامي مألوفاً لديّ فجأة، وتذكرت أنني في طفولتي كنت قد جئت الى هنا في احتفال اليوم الثالث عشر من النيروز، وكانت حماتي وتلك الفاجرة معي. كم عدونا في ذلك اليوم وراء بعضنا خلف أشجار السرو هذه وكم لهونا، ثم انضمت الينا مجموعة أخرى من الأطفال لا أذكرهم جيداً. وأثناء اللعب مضيت في احدى المرات وراء هذه الفاجرة وكانت بقرب نهر (سورن) ذاك، زلّت قدمها فوقعت في النهر. ثم أُخرجتْ منه وأُخذتْ وراء شجرة السرو لتبديل ملابسها، وقد ذهبت في أثرها، حجبوها بمنديل مما تضعه النساء على رؤوسهن أثناء الصلاة. ولكني رأيت كامل جسدها خلسةً من وراء الشجرة. كانت تبتسم وتقضم أظفر سبابة يدها اليسرى. ثم لُفّت بغطاء كتف أبيض، ونُشر ثوبها الأسود الحريري المنسوج من خيوط ظريفة دقيقة في الشمس.

تمددتُ أخيراً تحت شجرة السرو العتيقة فوق الحصى. كان خرير الماء يبلغ أذني مثل كلام متقطع غير مفهوم يزمزم به شخص نائم يحلم. أرسلت يديّ دون إرادة في الحصى الحار الرطب، كنت أضغط الحصى الحار الرطب



في قبضتي، كان مشدوداً مثل لحم جسد فتاة وقعت في الماء فبُدلتْ لها ملابسها.

لا أدري كم انصرم من وقت، حين نهضت من مكاني وسرت دون ارادة. كان كل شيء ساكناً هادئاً. كنت أمشي ولكني لا أبصر شيئاً مما حولي. كان ثمة قوة خارجة عن ارادتي اسلمتني للذهاب، كانت كل حواسي مركزة على قدميّ. لم أكن أمشي، ولكني كنت مثل تلك الفتاة لابسة الأسود أنزلق على قدميّ وأعبر - حين ثبتُ الى رشدي وجدتُني في المدينة أمام دار حمّيي (والد زوجتي)، لا أدري لماذا مضى بي السبيل نحو بيت حميي - كان ابنه الصغير أخو زوجتي جالساً على الدكة القائمة عند مدخل البيت - كان وأخته مثل تفاحة شُطرتْ الى نصفين. له عينان مائلتان تركمانيتان، وجنتان بارزتان، لون حنطي، أنف شهواني ووجه نحيف محنك. كان وهو في جلسته تلك يضع سبابته اليسرى في فمه. تقدمت دون ارادة فاستخرجت الكعكتين من جيبي وأعطيته اياهما قائلاً: "هاتان أرسلتهما اليك شاه جان".

- نظر بعينيه التركمانيتين نظرة متعجبة الى الكعك الذي حمله في يده متردداً. جلست على الدكة وأجلسته في حضني وضممته إليّ. كان جسمه حاراً وساقاه مثل ساقي زوجتي، وله حركاتها العفوية ذاتها. شفتاه كانتا تشبهان شفتي والده. ولكن ذلك الذي كان ينفرني في والده كان فيه يشدني ويجذبني - كانت شفتاه المنفرجتان نصف انفراجة كأنهما قد فرغتا لتوّهما من قبلة طويلة حارة - قبّلتُ فمه نصف المفتوح الذي كان يشبه شفتي زوجتي -



كان لشفتيه طَعمُ عَقِبِ الخيار، مرٌّ وحامض. لا بدَّ انه كان لشَفَتيْ تلك الفاجرة المذاق ذاته.

عندئذٍ رأيت والده - ذلك العجوز الأحدب المتشح بوشاح عنق، خرج من باب البيت. عبر دون أن ينظر ناحيتي. كان يضحك ضحكاً متقطعاً مخيفاً يوقف الشعر على البدن، وكتفاه تهتزان من شدة الضحك. أردت من فرط الحياء أن أغوص في الأرض - كان الغروب قد دنا، نهضت وكأنني كنت أريد أن أهرب من نفسي، ودون إرادة أخذت طريقي نحو البيت. لم أكن أرى أحداً أو أبصر شيئاً، كان يخيل اليّ أنني أتحرك عبر مدينة مجهولة. كانت البيوت الغريبة العجيبة بأشكالها الهندسية المقطعة بالنوافذ المهجورة السوداء حولي. كان يبدو وكأن أي كائن حي لم يتمكن من العيش فيها أبداً، ولكن جدرانها البيضاء كانت تلمع ببريق خافت، والشيء الذي كان غريباً، الشيء الذي لم استطع أن أصدقه، هو أنني كلما وقفت أمام واحد من هذه الجدران كان يسقط ظلي أمام ضوء القمر على الجدار ضخماً غليظاً ولكن بدون رأس - لم يكن لظلي رأس - كنت قد سمعت أن ظل المرء إن كان بدون رأس فسوف يموت قبل حلول رأس السنة.

دخلت بيتي مذعوراً ولجأت الى حجرتي - في الوقت ذاته رعف أنفي وبعد أن نزف قدر كبير من الدم من أنفي سقطت في فراشي فاقد الوعي، وانهمكت مرضعتي في العناية بي.

قبل أن أنام نظرت الى وجهي في المرآة، فرأيته منكسراً مبهماً فاقد الروح. كان مبهماً الى حدٍّ أنني لم أتعرف على نفسي - مضيت الى الفراش وسحبت



اللحاف على رأسي، تقلبت، وأدرت وجهي نحو الحائط. ضممت ساقيّ وأغمضت عيني وتابعت تخيلاتي. هذه الخيوط التي تشكل مصيري المظلم، المحزن، المهيب والمفعم بالنشوة - هناك حيث تختلط الحياة بالموت وتظهر للوجود التصورات المنحرفة، وتحيا من جديد الرغائب القديمة المقتولة، والميول التي أهملت وخنقت، تعود للحياة وتصرخ صرخة الانتقام - في هذا الوقت كنت أقتلع من الطبيعة والعالم الظاهري، وكنت مستعداً للفناء والإنعدام في تيار أزليّ - همست لنفسي عدة مرات: "أيها الموت، أيها الموت... أين أنت؟" وقد هدّأ هذا من روعي وأغمضتْ عيناي.

حين أغمضتْ عيناي، رأيتني في ميدان (المحمدية)[١٩]. وقد نصبت مشنقة عالية وعلق عليها الشيخ الذي كان يبيع الخردوات قدام غرفتي. كان عدة أفراد من العسس سكارى يحتسون الشراب عند أسفل المشنقة - وحماتي بوجه متوهج، بوجه يشبه وجه زوجتي حين تثور، أراها الآن يمتقع لون شفتيها وعيناها تغدوان مدورتين مذعورتين. تجذبني من يدي، وتعبر من بين الناس وتشير الى الجلاد الذي كان يرتدي لباساً أحمر وهي تقول: "أُشنقْ هذا أيضاً!...". هببت من النوم مذعوراً - كنت أتلظى مثل أتون، جسدي مبلل بالعرق، وحرارة لاهبة تشتعل فوق وجنتي - ولكي أنجو من قبضة هذا

---

[١٩] ميدان المحمدية: كان هذا الميدان - الذي كان اسمه (ميدان الإعدام) يقع خارج المدينة تقريباً، في جنوب غرب طهران، عند نهاية شارع (حليل آباد)، وكان يتم فيه إعدام المحكومين بالإعدام.



الكابوس، نهضت، شربت ماء ورشقت بعضه على رأسي ووجهي. عدت الى النوم، ولكن النوم جافاني.

كنت أحدق من خلال النور الباهت في الحجرة، بإبريق الماء الذي كان على الرف. خيل الي أنه ما دام الإبريق على الرف فلن أغفو - نشأ لدي خوف ليس في محله، من أن الإبريق سوف يسقط، نهضت لأعدل وضع الإبريق، ولكن يدي بفعل دافع خفي لم أنتبه لوجوده، اصطدمت بالإبريق عمداً، فسقط وانكسر، أغمضت في النهاية عيني قسراً، ولكني تخيلت أن مرضعتي واقفة تنظر الي - ضممت قبضتي تحت اللحاف، ولكن لم يكن قد حدث أي أمر خارق. سمعت وأنا في حالة غيبوبة الصوت القادم من الزقاق، سمعت صوت قدميْ مرضعتي وهي تجرّ نعليها على الأرض، لقد ذهبت واشترت خبزاً وجبناً.

ثم جاء صوت بائع من بعيد ينادي: "تشفي من الصفراء يا توت!". كلاّ، كانت الحياة قد شرعت كالعادة تبعث الضجر. كان الضياء يزداد، حين فتحت عيني كانت بقعة من ضوء الشمس المنعكس عن سطح حوض الماء في الفناء عبر نافذة حجرتي، تتراقص على السقف.

بدا لي حلم الليلة البارحة ممعناً في البعد والإبهام وكأنني قد رأيته قبل عدة سنوات حين كنت طفلاً. أحضرت مرضعتي فطوري، كان وجهها وكأنه انعكاس صورة على مرآة مهشمة، بدا لي نحيفاً ممطوطاً الى حد بعيد، ومضحكاً على نحو غير معقول. كأن وزناً ثقيلاً قد مطّ وجهها الى أسفل.



رغم أن (أمي العزيزة) كانت تعلم أن دخان الغليون يضربي الاّ أها كانت تدخن في غرفتي. وهي لا يروق مزاجها أصلاً الاّ اذا دخنت الغليون. الها من كثرة ما حدثتني عن بيتها وكنّتها في بعض الأحيان أروح أفكر في حياة أفراد بيت مرضعتي ولكني لا أدري لماذا كانت حياة الآخرين وأفراحهم توقع الاضطراب في قلبي - في حين كنت أعلم أن حياتي قد انتهت وأها آخذة في الخمود شيئاً فشيئاً وعلى نحو مؤلم. يهمني أن أوجه فكري نحو حياة الحمقى والسوقة، ان كانوا أصحاء، يأكلون جيداً ويجامعون جيداً، وهم لم يحسوا أبداً بذرّة من آلامي و لم تحتكّ أجنحة الموت كل دقيقة برؤوسهم ووجوههم؟

كانت مربيتي تعاملني معاملة الأطفال. وتريد أن ترى كل جزء في جسدي. وكنت ما أزال أخجل من زوجتي. حين أدخل حجرتي أغطي البلغم الذي أكون قد بصقته في الطست - وأمشط شعر رأسي ولحيتي، وأرتب وضع طاقية النوم على رأسي. ولكني بحضرة مرضعتي لم أكن أحس بأي خجل مهما يكن - لماذا حشرت هذه المرأة التي لا تربطني بها أية رابطة، نفسها في حياتي الى هذا الحد؟ أذكر أنه في هذه الغرفة ذاها كان يوضع في الشتاء كرسي[٢٠] فوق بئر الماء. كنت ومرضعتي ننام حول الكرسي مع هذه الفاجرة. وحين كنت أفتح عيني في غبش الفجر كنت أرى الحياة تدبّ في الرسم على الستارة المطرزة المعلقة أمام الباب. يا لها من ستارة عجيبة مخيفة! عليها رجل عجوز أحدب يشبه دراويش الهند، على رأسه عمامة، جالس

---

[٢٠] كرسي: مدفأة محلية في ايران، هي عبارة عن مصطبة مبنية وسط الحجرة، يوضع فيها الوقود، وتغطى بقماش، يتحلق أفراد الأسرة حولها، طلباً للدفء.



تحت شجرة سرو وفي يده آلة موسيقية تشبه (السيتار)[٢١]، وثمة فتاة شابة جميلة تشبه (بوغام داسي) راقصة المعابد الوثنية الهندية، يداها مغلولتان بالسلاسل وكأنها مجبرة على الرقص بين يدي العجوز - كنت أتخيل أن هذا العجوز أيضاً، ربما يكون قد أُلقي في زنزانة مظلمة مع أفعى، فخرج على هذا النحو وقد ابيضَّ شعر رأسه ولحيته.

كانت هذه الستارة من تلك الستائر الهندية الموشاة بالذهب والتي ربما يكون أبي أو عمي قد ارسلها من الممالك البعيدة - كنت أخاف عندما أزداد تدقيقاً في هذا الشكل، فأوقظ مرضعتي ناعساً، فتضمني اليها ورائحة فمها كريهة وشعرها الخشن الأسود يلامس وجهي - حين استيقظت في الصباح بدت في نظري على ذلك النحو ذاته، بفارق أن خطوط وجهها غدت أعمق وأشدّ.

إني أستحضر أيام طفولتي في الغالب من أجل النسيان، ومن أجل الفرار من نفسي. ولكي أحس حالتي قبل المرض - وأحس أنني صحيح معافى - ما زلت أشعر أنني طفل ومن أجل موتي، ومن أجل فنائي فقد كان ثمة نفس ثانية تترحم علي، وتشفق على حالتي، حالة هذا الطفل الذي سيموت - في المواقف المخيفة في حياتي كنت ما أكاد أرى وجه مرضعتي الهادئ، وجهها الشاحب، عينيها الغائرتين الثابتتين المعتكرتين، أنفها الدقيق وجبهتها العظمية العريضة حتى تستيقظ في ذكريات ذلك العهد - لعل أمواجاً غامضة كانت

---

[٢١] سيتار: آلة موسيقية من نوع الطنبور ويعزف بمداعبة الأوتار بظفر الإصبع السبابة. وكان له في القديم ثلاثة أوتار (سه تار) ولكن له الآن أربعة أوتار.



تنبعث منها فتعمل على تهدئتي - كان على صدغها خال لحمي، نبت عليه الشعر - كأني لم ألحظ خالها سوى اليوم، حين كنت أنظر الى وجهها من قبل لم أكن أدقق على هذا النحو.

رغم أن مرضعتي قد تغيرت في مظهرها الاّ أن أفكارها قد بقيت على حالها، سوى أنها غدت تبدي حبّاً أكبر للحياة وتخاف من الموت. مثل الذباب الذي كان يلوذ بغرفتي في مطلع الخريف. ولكن حياتي كانت تتغير في كل يوم وفي كل دقيقة. كان يبدو لي أن طول الزمان والتغييرات التي كان يمكن للناس ان يجروها في العديد من السنوات، قد غدت عندي خاطفة سريعة الحدوث بما لا يقارن بما تستغرقه عند الآخرين. في حين أن المتعة فيها كانت على العكس تتجه نحو الصفر وربما تجاوزته - هنالك أناس يبدأون بمعاناة سكرات الموت وهم في سن العشرين، في حين أن كثيرين، فقط عندما يحين أجلهم ينطفئون شيئاً فشيئاً وبهدوء بالغ مثل سراج انتهى زيته.

حين أحضرت مرضعتي الغداء عند الظهر، ضربت إناء الحساء، وصرختُ؛ صرخت بكل قواي، جاء كل من في البيت وتجمهروا أمام حجرتي. تلك الفاجرة أيضاً جاءت ومضت مسرعة. نظرتُ الى بطنها، كان منتفخاً. كلاّ، لم تكن قد وضعت حملها بعد. أرسلوا من أخبر الحكيم - كنت أشعر بالمتعة إذ على الأقل أزعجت هؤلاء الحمقى.

جاء الحكيم بلحيته التي يبلغ عرضها ثلاث أكف وأصدر أمره بأن أدخن الأفيون. يا له من علاج باهظ لحياتي المؤلمة! حينما كنت أدخن الأفيون



كانت أفكاري تصير عظيمة لطيفة مسحورة ومجنحة - كنت أجول سائحاً في محيط آخر وراء العالم المعهود.

كانت أفكاري وتصوراتي تتحرر من ثقل ووزن الأشياء الأرضية وتطير نحو سماء هادئة رائعة - كنت كأنني قد وُضعت على جناحي خفاش ذهبي ورحت أتجول في عالم خاوٍ برّاق ليس فيه أي حواجز. كان هذا التأثير عميقاً وممتعاً الى درجة تفوق متعة الموت.

حين نهضت من جانب المجمرة، مضيت نحو النافذة التي تطل على الفناء، رأيت مرضعتي جالسة في الشمس وهي تنظف الخضراوات. سمعتها قالت لكنّتها: "لم يعد فينا أحد قادراً على التحمل، ليت الله يقتله ويريحه!". يبدو أن الحكيم قد أخبرها بأني لن أتحسن.

- ولكني لم أعجب أبداً. يا لمقدار حمق هؤلاء الناس! بعد ساعة واحدة فقط حين أحضرتْ اليَّ الزهورات كانت عيناها حمراوين متورمتين من فرط البكاء - ولكنها في حضوري ابتسمت قسراً - انهم يمثلون عليّ، وعلى نحو مكشوف غير متقن، أيظنّون أنني لا أعلم؟ ولكن لماذا تبدي هذه المرأة لي الحب؟ لماذا تعتبر نفسها شريكتي في آلامي؟ اعطوها نقوداً ذات يوم فحشرت ثدييها المغضنين الأسودين بين شفتي مثل قربتين صغيرتين - ألا ليت ثدييها أُصيبا بالجذام. الآن حين أرى ثدييها أكاد أتقيأ إذ أتخيلني وأنا في ذلك الوقت أمتص رحيق حياتها بشهية طاغية، وتتداخل حرارة جسمينا. كانت تمسح بيدها على كامل جسدي وهذا هو السبب في أنها تسلك معي الآن سلوكاً يعتبر جسوراً بالنسبة لامرأة لا زوج عندها. انها تنظر اليّ بعين الطفولة ذاتها،



لأنها كانت ذات يوم تمسك بي في المرحاض ريثما أقضي حاجتي. ومن يدري، فلعلها كانت تساحقني وتتخذني شريكة لها حميمة مثلما تفعل النساء.

وكم كانت الآن تقلبني وتتفحصني بدقة وفضول زائدين! لو كانت زوجتي، تلك الفاجرة تعتني بي، ما كنت أتيح لمرضعتي أن تتجرأ عليّ، لأنني بيني وبين نفسي كنت أظن أن دائرة فكر زوجتي واحساسها بالجمال أوسع مما هي عند مرضعتي، أو ان الشهوة وحسب هي التي كانت قد خلقت لدي حس الخجل والحياء هذا.

من هنا كنت لا أحس بالحياء من مرضعتي، وكانت هي الوحيدة التي تعنى بشؤوني - لا بدّ ان مرضعتي كانت تعتقد ان المقادير قد جرت بذلك، وان هذا مكتوب عليها. علاوة على ذلك فهي تستغل مرضي وتشرح لي كل همومها العائلية، بحلوها ومرها وتبسط أمامي روحها المؤذية البخيلة، وغيظها من كنتها وكأنها ضرتها، ومن حب ابنها وشهوته اللذين كانا عندها مختلسين، كم كان حقدها وهي تروي كل ذلك! لا بدَّ أن كنتها جميلة، لقد رأيتها من النافذة المطلة على الفناء، لها عينان خضراوان مائلتان للزرقة، وشعر أشقر وأنف صغير دقيق.

كانت مرضعتي تحدثني أحياناً عن معجزات الأنبياء، تريد بذلك كما تظن أن تعزيني. ولكني كنت أحزن لمدى حماقة تفكيرها وتواضعه. وكانت في بعض الأحيان تتلقط لي الأخبار، قبل عدة أيام مثلاً، أخبرتني بأن فتاتي (أي



تلك الفاجرة) كانت تخيط قميصاً[٢٢] للطفل، طفلها. وفيما بعد، بدا وكأنها كانت تعرف أنها قد سرّت عني وسلّتني. وتذهب في بعض الأحيان تجلب لي دواء من عند الجيران والمحيطين، وتراجع السحرة وقارئي الحظّ والمنجمين وتستشيرهم بشأني. ذهبت في آخر يوم أربعاء في السنة[٢٣] تستمع لتقرأ حظي[٢٤] فأحضرت إناءاً فيه بصل وأرز وزيت فاسد - وقالت انها قد شحذت هذه الأشياء وهي تضمر نيّة شفائي وسلامتي[٢٥]، وكانت تعطيني هذه القاذورات خفيةً لأتناولها. وكانت بين الحين والحين تخصني بزهورات الحكيم. تلك المغليات اللعينة التي كان قد وصفها لي: رُبُّ السوس، الكافور، كزبرة البئر، البابونج، زيت الإوز، بذر الكتان، بذر الصنوبر، النشاء وألف نوع من خزعبلات أخرى.

قبل عدة أيام أحضرت لي كتاب دعاء، سُمكُ الغبار عليه شبر. لم يكن كتاب الدعاء وحسب، بل لم يكن أي نوع من كتب وأفكار الرعاع يفيدني.

---

[٢٢] قميص الطفل: قطعة من القماش بطول ستين سنتمتراً وعرض ثلاثين سنتمتراً تقريباً، تُشقُّ من وسطها يدخلون رأس الطفل في شقها، فتنسدل على كتفيه فيما يشبه القميص وتغطي صدره وظهره، تسمّى (قميص القيامة) وفي المعتقد الشعبي أنها تحمي الطفل من حرّ يوم القيامة.

[٢٣] آخر يوم أربعاء في السنة: ليلة آخر يوم أربعاء في السنة يقام احتفال في سائر أنحاء ايران، تمارس فيه عادات وتقاليد خاصة. في هذه الليلة تشعل النيران في جميع المدن والقرى الايرانية، ويقرأون الشعر، ويقرأون الحظّ ويعرفون البخت.. وما الى ذلك.

[٢٤] - تقرأ حظي: من طقوس ذلك الاحتفال.

[٢٥] من الطقوس



ما حاجتي الى كذهم وتزويرهم، ألستُ - أنا نفسي - خيطاً من الأجيال الماضية، وتجاربُهم الموروثةُ أليست باقية فيّ؟ ولكن، لا المسجد ولا صوت الأذان ولا الوضوء والبصق والإنحناء والإعتدال بين يدي قادر متعال فعّال لما يريد عليّ التواصل معه باللغة العربية، كان لها تأثير عليّ.

رغم اني قبل ذلك، عندما كنت معافى، كنت قد ذهبت الى المسجد بضع مرات قسراً، وحاولت أن أتماثل في شعوري وعواطفي مع سائر الناس، الاّ أن عينيّ كانتا تحدقان في البلاط المطلي بالميناء والزخرفات والنقوش على جدران المسجد، التي كانت تأخذني في نعاس لذيذ، وتوفر لي مهرباً دون ارادة مني - عند الدعاء كنت اغمض عيني وأجعل كفّيَّ أمام وجهي - وفي هذا الليل الذي أصنعه لنفسي كنت أدعو بكلمات غير مسؤولة مثل تلك التي تردد في الحلم. ولكن تلك الكلمات لم تكن صادرة من القلب، لأني كنت أفضل الحديث مع أحد الأصدقاء أو أحد المعارف على الحديث مع الله، القادر المتعالي! لأن الله كان أعلى مني.

عندما كنت نائماً في فراش ساخن رطب لم تكن كل هذه القضايا تساوي عندي خردلة، وفي هذه المواقف لم أكن أريد ان أعرف إن كان يوجد إله حقاً أم إنه تجلٍّ للحكام على الأرض تخيلوه لتثبيت ألوهيتهم وإحكام سيطرتهم على رعاياهم. - وأنهم قد اسقطوا تصوراتهم الأرضية على السماء - كل ما كنت أود معرفته هو هل يطلع عليّ النهار وأنا حي أم لا - كنت أحس مدى هشاشة وطفولية الدين والإيمان والإعتقاد إزاء الموت، وانها الى حدٍّ ما نوع من التسلية للأصحاء والمحظوظين - إزاء حقيقة الموت الرهيبة



والحالات التي كنت أمرُّ بها والتي تصهر الروح فانّ كل ما كانوا قد لقنوني إياه عن ثواب الروح وعقابها ويوم البعث قد غدا خدعة لا طعم لها، كما لم يعد للأدعية التي كانت قد أعطيتْ لي أي تأثير إزاء رهبة الموت.

كلاّ، كان الخوف من الموت آخذاً بخناقي ولا يريد أن يدعني - والناس الذين لم يتألموا لن يدركوا معنى هذه الكلمات - لقد ازداد لدي حس الحياة الى حد أن أدنى لحظة سرور كانت تعوّض ساعات طوالاً من الاختناق والاضطراب.

كنت أرى أن الألم والمعاناة موجودان ولكنهما خاليان من أي نوع من المعنى والمفهوم - لقد اصبحت بين الرعاع عِرقاً مجهولاً غير معروف بحيث نسوا أنني كنت قبل هذا الحين جزءاً من عالمهم. وكان الشيء المخيف هو احساسي بأنني لست حيّاً حياً ولست ميتاً ميتاً، لم أكن سوى ميت متحرك لا أنا مرتبط بعالم الأحياء ولا أنا مستفيد من النسيان والراحة اللذين ينطوي عليهما الموت.

....

في الليل نهضت من جانب مجمرة الأفيون ونظرت الى الخارج عبر نافذة غرفتي، كانت تظهر شجرة سوداء مع باب دكان القصاب المغلق - كانت الظلال المظلمة قد تداخلت واختلطت معاً، وكنت أحس أن كل شيء فارغ خالٍ ومؤقت. السماء السوداء الملطخة بالقطران مثل خيمة سوداء مهترئة ثقّبَها عددٌ لا يحصى من النجوم الساطعة - ارتفع صوت الأذان في هذا الوقت. كان أذاناً في غير محله كأن امرأة، ربما تلك الفاجرة، قد جاءها



المخاض، وجلست تضع. كان أنين كلب يسمع في ثنايا أذان الصبح. فكرت: "إن صحَّ أنَّ لكل امرئ نجمة في السماء، فلا بدّ أن نجمتي نائية مظلمة ولا معنى لها - وربما لم تكن لي نجمة أساساً!".

في هذا الوقت علا من الزقاق صوت ثلة من العسس الثملين يعبرون وهم يتمازحون بابتذال. ثم انطلقوا في غناء جماعي، وغنّوا:

هَلُمَّ أيها الصّحابْ
هلمَّ نحتسي الشّرابْ
نحسو شرابَ مُلْكِ (ري)
قَبْلَ أن يطويها الضّبابْ.

تنحّيت جانباً وأنا خائف، كان غناؤهم يطوف في الجوِّ على نحو خاص، ثم ابتعد صوتهم شيئاً فشيئاً وانقطع. كلاّ، لم يكن لهم معي شغل، انهم لم يكونوا يعرفون... لفَّ الصمت والظلام الكون من جديد - لم أشعل مصباح غرفتي، أعجبني أن أجلس في الظلام - الظلام، هذه المادة الكثيفة السائلة التي تنفذ في كل مكان وكل شيء. كنت قد ألفته - انه في الظلام يتخلق كل شيء من جديد ويمشي ويسخر مني: أفكاري الضالة، المخاوف المنسية، الأفكار الجليلة غير المعقولة التي لا أدري في أي زاوية من دماغي كانت مختبئة - كانت أركان الغرفة، وما وراء الستارة، وبجانب الباب كلها ملآنة هذه الأفكار والهياكل المتوعدة العديمة الشكل.

هناك بجانب الستارة كان يجلس هيكل مخيف دون حراك، ولم يكن محزوناً ولا فرحاً. وكلما التفتُ حدّق في عينيّ - كنت آلف وجهه، كأنني



كنت قد رأيت هذا الوجه في طفولتي - كان يوم الثالث عشر من النيروز في إحدى السنوات، وكنت ألعب مع الأطفال على ضفة نهر (سورن) خُيِّل اليَّ أنه ظهر لي هذا الوجه نفسه مع الوجوه العادية الأخرى التي كانت للأطفال - كان وجهه يشبه هذا الرجل نفسه، القصاب المواجه لنافذة غرفتي. لكأن هذا الرجل كان له دخل في حياتي وأنني كنت رأيته كثيراً - كأنّ هذا الظل كان توأمي وأنه يقع ضمن دائرة حياتي المحدودة...

عندما نهضت أشعل المصباح انمحى ذلك الهيكل تلقائياً واختفى. مضيت نحو المرآة ودققت النظر في صورتي، بدت لي الصورة المتكونة غريبة عني - كانت غير معقولة ومخيفة. لقد أصبحت صورتي أقوى مني وصرت أنا مثل صورة في المرآة - بدا لي انني لا أستطيع البقاء وحيداً مع صورتي في حجرة واحدة. كنت أخشى إن هربتُ أن تتعقبني، مثل قطتين تواجهتا معاً في عراك. ولكني رفعت يدي، وأبقيتها أمام عيني كي أولّد في تجويف يدي ليلاً خالداً. غالباً ما كانت حالة الخوف تحمل لي احساساً بالمتعة والسُّكْر بحيث كان يدور رأسي وترتخي ركبتاي وأرغب في التقيؤ. لاحظت فجأة أنني واقف على قدمي - كانت هذه القضية بالنسبة اليّ غريبة، معجزة - كيف استطعت أن أكون واقفاً على قدميّ؟ خُيل الي انني لو حركت إحدى قدمي لاختلّ توازني، كانت قد تكونت لدي حالة دوار من نوع ما — لقد غدت الأرض وموجوداتها بعيدة عني دون حد. كنت أتمنى على نحو مبهم أن تحدث زلزلة أو صاعقة سماوية كي أستطيع أن أولد من جديد في عالم هادئ مضيء.



عندما أردت أن آوي الى فراشي، ردّدت في سرّي عدة مـــرات: "أيـــها الموت... أيها الموت..." كانت شفتاي مطبقتين، ولكني خفت من صـوتي - لقد غادرتني جرأتي السابقة، أصبحت مثل الذباب الذي يهجم على غرفتي في مطلع الخريف، الذباب الجاف المتهافت الذي يخاف مـــن طنـين أجنحتـــه. ينكمش مدةً دون حراك عند نقطة على الجدار، وما إن يكتشف أنه حي حتى يبدأ بصدم كل شيء بتهور وطيش، وتتساقط جثثه في أركان الحجرة.

حين كان يسدل جفناي، كان يتكون أمامي عالم مبهم. عالم أوجدتـــه كله بنفسي ويتفق مع أفكاري ومشاهداتي. ومهما يكن فهو أكثر حقيقيـــة وطبيعية من عالم يقظتي. كأن لم يكن هنالك أي مانع أو عائق أمام فكــري وخيالي، كان الزمان والمكان يفقدان تأثيرهما - وحس الشهوة المقتول هـــذا الذي كان الحلم وليده، كان وليد احتياجاتي النهائية. وهو يجسد لي اشـــكالاً وحوادث غير معقولة ولكنها طبيعية. وبعدما كنت استيقظ، في تلك اللحظـة بالذات كنت ما أزال أشك في وجودي، غافلاً عن زماني ومكاني - كـــأن الرؤى التي كنت أراها قد صنعتها كلها بنفسي، وأعرف تعبيرهـــا الحقيقـــي مسبقاً.

كان قد مضى شطر كبير من الليل حين غفوت. رأيت فجأة أنني أتجـــول بحرية وأتنفس بارتياح عبر أزقة مدينة مجهولة لها بيوت عجيبة غريبة بأشـــكال هندسية منشورية ومخروطية ومكعبة بنوافذ واطئة مظلمة وهي ملتفة من كـــل حدب وصوب بشجيرات النيلوفر. ولكن أهل هذه المدينة قد قضوا نحبـــهم بموت غريب. كانوا جميعاً قد تجمدوا في أماكنهم، وانسابت قطرتان من الـدم



وانحدرتا من فم كل منهم حتى ملابسه. وكل من كنت أمد يدي عليه كان ينخلع رأسه ويسقط.

وصلت قُدّام حانوت قصاب، رأيت رجلاً شبيهاً بالشيخ بياع الخردوات أمام بيتنا، عاقداً وشاح عنق ممسكاً بسكين في يده يحدق بي بعينين حمراوين كأن جفونهما مقطوعة، أردت أن أنزع السكين من يده، فانخلع رأسه وسقط على الأرض، لذتُ بالفرار من شدة الخوف، كنت أجري في الأزقة وكل من رأيته كان قد تجمد في مكانه - كنت أخشى أن أنظر ورائي، حين صرت قدام بيت والد زوجتي كان أخو زوجتي، الأخ الصغير لتلك الفاجرة جالساً على الدكة أمام البيت، أدخلت يدي في جيبي وأخرجت كعكتين محلاتين، أردت أن أعطيه اياهما، ولكن ما إن لمسته حتى انخلع رأسه وهوى الى الأرض. صرخت وأفقت.

كان الجو ما يزال بين النور والعتمة، قلبي يخفق بشدة؛ بدا لي أن السقف يضغط بثقله على رأسي، وأن الجدران قد تضخمت بلا حدود وأن صدري يوشك أن ينفجر. غامت رؤية عيني. حملقت مرعوباً بقضبان السقف، كنت أَعُدّها فأُنهيها وأشرع من جديد. ما إن أغمضت عيني عنوةً حتى سمعت صوت الباب، جاءت مرضعتي تكنس غرفتي، كانت قد وضعت فطوري في الغرفة التي على سطح البيت، صعدتُ فوق السطح، وجلستُ أمام الباب المواجه للفناء، من ذلك العلوّ لم يكن العجوز بياع الخردوات ظاهراً، ومن الجهة اليسرى فحسب كنت أرى القصاب، ولكن حركاته التي كانت تبدو لي من نافذة غرفتي مخيفة ثقيلة موزونة، بدت من هذا العلوّ مضحكة عاجزة،



كما لو أن هذا الرجل ما كان ينبغي أن يكون عمله القصابة وانما هو يمثل دوراً - جيءَ بالكديشين الأسودين الأعجفين اللذين كانت تتدلى على جانبي كل منهما جثتا خروفين، واللذين كانا يسعلان سعالاً ناشفاً عميقاً. مسح القصاب بيده المدهِنة على شاربه، ألقى بنظرة مشترٍ على الخراف، وأخذ اثنين منها بصعوبة وعلقهما بكلاّب دكانه - داعب ظاهر أفخاذهما. لا بدَّ أنه حين يداعب جسد زوجته في الليل يتذكر الخراف، ويفكر بقدر المال الذي يعود عليه لو ذبح زوجته.

حين انتهى الكنس عدت الى غرفتي واتخذت قراراً - قراراً مرعباً، ذهبت فدخلت ملحق حجرتي واستخرجت السكين ذات المقبض العظمي من العلبة، مسحت حدها بطرف ردائي ووضعتها تحت وسادتي - كنت قد اتخذت هذا القرار منذ زمن - ولكن لا أدري ماذا كان في حركات القصاب، عندما كان يقطع أفخاذ الخراف، ويزنها، وينظر اليها نظرات استحسان، بحيث أحسست غصباً عني أنني أريد ان أقلده. كنت في حاجة الى اقتراف هذه اللذة - كان يبدو من نافذة غرفتي على صفحة السماء بين الغيوم ثقب عميق أزرق تماماً، بدا لي أنني كي أصل الى هناك ينبغي علي أن أصعد سلّماً غاية في الطول. كانت تحجب حاشية السماء غيوم زرقاء كثيفة ملطخة بالموت، بحيث كانت تنيخ بثقلها على المدينة كلها. -

كان جواً مرعباً ومفعماً باللذة لماذا كنت أنحني نحو الأرض، في هذا الجو كنت أفكر في الموت دائماً، أماّ الآن حيث أمسك الموت بخناقي بوجهه



الدامي ويديه العظميتين، الآن وحسب قررت - ولكني كنت قد قـــررت أن آخذ هذه الفاجرة أيضاً معي كي لا تقول من بعدي: "استراح، يرحمه الله!".

في هذه الأثناء كان ينقل قدّام نافذة غرفتي تابوت مغطى بالأسود وعليـــه شمع مضاء: شدَّ انتباهي صوت "لا اله الاّ الله" - كل العمــــال وأصحـــاب الحرف والعابرين في الطريق كانوا يعدلون عن خط سيرهم ويمشـــون ســـبع خطوات وراء التابوت. حتى القصاب راح من أجل الثواب فمشـــى ســـبع خطوات وراء التابوت ثم عاد الى دكانه. ولكن العجوز ذا البساط لم يتحـرك من قدام سفرته - يا لجدية التعبير الذي كسا به كل الناس وجوههم! لعلـــهم قد ذكروا فلسفة الموت والعالم الآخر - حين أحضرت لي مرضعتي الزهورات رأيتها عابسة مقطبة الجبين، كانت تنقل حبات سبحتها الضخمة التي كـــانت في يدها وهي تلهج بالذكر - ثم حانت صلاتها فراحت تصلي خلف بـــاب غرفتي وهي تتلو بصوت عال جدّاً "اللهم.. اللهم..".

كنت كأنني موكل بالغفران للأحياء! ولكن كل هذه المهزلة والألاعيـــب لم يكن لها عليّ أي تأثير. وعلى العكس كان يلذّ لي أن الرعاع رغم أنهـــم مؤقتون عابرون وكذابون الاّ أنهم كانوا يمرون بعوالمي ولو لبضع ثـــوان - ألم تكن حجرتي تابوتاً، ألم يكن فراشي أبرد وأكثر ظلمةً من القبر؟ الفراش الذي كان منطرحاً دوماً يدعوني للنوم! - كثيراً ما كان يخطر لي أنني موجـــود في تابوت - كان يبدو لي أن حجرتي تضيق في الليل وتضغطني. ألا يحس النـــاس في القبر بهذا الإحساس ذاته؟ هل يعلم أحد شيئاً عن احساسات مـــا بعـــد الموت؟



رغم أن الدم يتوقف في الجسم، وفي ظرف يوم وليلة تبدأ بعض أعضاء الجسم بالتحلل ولكن شعر الرأس والأظافر تستمر في النمو بعد الموت مدة – هل تفنى الأحاسيس والأفكار كذلك بعد توقف القلب أم انها تستمر في حياة مبهمة لمدة ما، بفعل بقايا الدم في العروق الدقيقة؟ ان الإحساس بدنوّ الأجل مخيف في حد ذاته، فكيف بإحساس المرء أنه قد مات! هنالك عجائز يستقبلون الموت باسمين، وكأنهم ينعسون ويغفون، أو كأنهم سراجٌ خبا. ولكن ما هي الإحساسات التي سوف يشعر بها الشاب القوي الذي يموت فجأة وتظل كل قواه الجسدية تصارع الموت بعض الوقت؟

كنت قد فكرت مراراً بالموت وتحلل ذرات جسدي بحيث لم يكن هذا التفكير يخيفني – وعلى العكس كنت أتمنى من كل قلبي أن أنعدم وأفنى، ولكن الأمر الوحيد الذي كنت أخشاه هو أن تنضم ذرات جسدي الى ذرات أجساد الرعاع. كانت هذه الفكرة فوق ما أحتمل – كنت أتمنى أحياناً أن يكون لي بعد الموت يدان طويلتان بأصابع طويلة حساسة كي أجمع بدقة كل ذرات جسدي وأحفظها بحرص بالغ كي لا تذهب – ذرات جسدي التي هي ملكي – في أجساد الرعاع.

كنت أفكر أحياناً أن ما كنت أراه، كان يراه أيضاً الناس المشرفون على الموت. كان الاضطراب والخشية والخوف والرغبة في الحياة قد خمدت لدي، وكنت أحس في نفسي هدوءاً خاصاً لأني نبذت بعيداً المعتقدات التي كانت قد لُقّنت لي – والشيء الوحيد الذي كان يستهويني هو الأمل في الفناء بعد الموت – كانت فكرة العيش مرة أخرى تخيفني وتصيبني بالفتور – انني لم



آلف بعدُ هذا العالم الذي أعيش فيه، فما نفع العالم الآخر لي؟ كنت أحس أن هذا العالم لم يكن من أجلي، بل من أجل مجموعة من عديمي الحياء، الوقحين، المطبوعين على التسول والاستجداء، فاقدي الخواص، عديمي الأصل، عديمي التربية الجشعين - من أجل أشخاص خلقوا متناسبين مع العالم يستجدون الأقوياء في الأرض وفي السماء ويتملقونهم، مثل الكلب الجائع قدام دكان القصاب الذي يُوَصْوِصُ بذيله من أجل قطعة لحم سقطٍ لا غناء فيها - ان فكرة الحياة الأخرى تخيفني وترهقني - كلاّ، لست في حاجة الى رؤية كل هذه العوالم التي تبعث على الغثيان وكل هذه السِّحَنِ المشؤومة - فهل كان الله محدث نعمة الى ذلك الحد فيعرض علي عوالمه متباهياً مفاخراً؟ - ولكني لست قادراً على المدح الكاذب، فاذا اضطررت الى عيش حياة جديدة فانني آمل أن يكون لي فكر واحساسات بليدة بطيئة. كنت أتنفس دون عناء ودون أن أحس بالتعب، كان بوسعي أن أعيش الحياة في ظل معبد (لينغم) - كنت أتسكع بحيث لا يؤذي ضوء الشمس عيني، وكان كلام الناس وصوت الحياة يصكّ سمعي.

....

مهما بالغت في الانطواء على نفسي، مثل الحيوانات التي تقضي الشتاء داخل أحد الجحور، فاني كنت أسمع أصوات الآخرين بأذني، وأسمع صوتي في حنجرتي - كانت الوحدة والعزلة التي كمنت وراء ظهري، مثل الليالي الأزلية الكثيفة المتراكمة، الليالي ذات الظلمة اللزجة الغليظة المعدية، والتي تنتظر أن تنقضّ على رؤوس المدن الخالية الغاصة بأحلام الشهوة والحقد -



ولكني لم أكن إزاء هذه الحنجرة شيئاً أكثر من نوع من الإثبات المطلق والمجنون – ضغطٍ عند توليد المِثْل يلصق الفردين معاً دفعاً للوحدة وفي النتيجة فانّ هذه الطبيعة بالذات التي يشوبها الجنون والتي توجد في كل شخص والممزوجة بالأسف هي التي تميل ببطء نحو أعماق الموت..

الموت وحده هو الذي لا يكذب!

حضور الموت يفني ويعدم كل الأوهام. نحن أطفال الموت والموت هو الذي ينادينا ويدعونا اليه – وفي الأعمار التي نكون فيها لا نفهم لغة الناس اذا توقفنا أثناء اللعب أحياناً فانما ذلك لكي نسمع صوت الموت... وطوال مدة الحياة فالموت هو الذي يشير الينا – ألم يحدث لكل امرئ أن يغوص في الفكر فجأة ودون سبب وأن يتعمق فيه الى حدٍّ يذهل معه عن زمانه ومكانه ولا يعرف بِمَ يفكر؟ عندئذٍ عليه بعدُ، أن يجهد كي يعود الى وعيه بوضعه وعالمه الظاهريين – هذا، هو صوت الموت.

في هذا الفراش الرطب الذي تشرّب برائحة العرق، حين يثقل جفناي، وأريد أن أسلم نفسي للعدم ولليل الخالد، كانت كل الذكريات الضائعة والمخاوف المنسية تدبُّ فيها الحياة من جديد: الخوف من أن يتحول ريش الوسادة الى خناجر، وتكبر أزرار سترتي فتصبح بحجم حجر الطاحون – الخوف من أن تنكسر كسرة الخبز الرقيق مثل الزجاج حين تقع على الأرض – القلق من أن أغفو فينسكب زيت السراج على الأرض وتشبّ النار في المدينة – التوهّم من أن تُحدث أقدام الكلب قدّام دكان القصاب أصواتاً مثل حوافر الحصان، الخشية من أن ينفلت رجل الخردوات العجوز أمام بساطه



بالضحك، الى حدّ أن لا يستطيع السيطرة على صوته، الخوف من أن تتحول الديدان في مغسلة الأرجل عند حافة حوض بيتنا الى أفاعٍ هندية، الخوف من أن يصير فراشي شاهد قبر ويدور بواسطة مفصل حول نفسه فيدفنني وتنطبق الأسنان المرمرية على نفسها، الخوف والرعب من أن ينقطع صوتي فلا يخفّ أحد لنجدتي مهما صرخت...

كنت أتمنى أن أتذكر طفولتي، ولكني حين كنت أفلح في ذلك، فأتذكرها وأحسها كنت أجدها مثل تلك الأيام صعبة ومؤلمة!

السعال الذي كان ينبعث منه صوت سعال الكديشين الأسودين الأعجفين أمام دكان القصاب، بصق البلغم قسراً والخوف من أن تظهر فيه بقع دم - الدم، هذا السائل الدافئ ذو الطعم المالح الذي يخرج من داخل الجسم وهو عصارة الحياة ولا بدَّ من استفراغه. وتهديد الموت الدائم الذي كان يلكم أفكاره دون أمل في العودة ويمضي، لم يكن بدون خوف وذعر.

ان الحياة توائم ملامح وجه كل شخص مع ذاته، ببرود ولا مبالاة، وكأن كل شخص يحمل معه عدة وجوه - البعض لا يستخدم الاّ واحداً من هذه الوجوه دائماً، فيتغضن بالطبع ويمتلئ بالتجاعيد. وهذه المجموعة من الناس مقتصدون - والمجموعة الأخرى يحفظون وجوههم لخلفهم وأحفادهم، وبعض آخر يغيرون وجوههم دون انقطاع ولكن ما إن يبدأوا في التقدم في السن حتى يدركوا أن هذا هو آخر وجه لهم وأنه سرعان ما يبلى ويخترب، وعندئذٍ يخرج وجههم الحقيقي من وراء الوجه الأخير.



لا أدري ما هو التأثير المسموم الذي كان لجدران غرفتي بحيث كانت تسمم أفكاري - أجزم ان مجنوناً مقيداً بالسلاسل كان قبل الموت في هذه الحجرة، ليست جدران غرفتي وحسب، بل المشهد في الخارج، وذلك الرجل القصاب، والرجل العجوز صاحب الخردوات، ومرضعتي، وتلك الفاجرة وكل الناس الذين كنت أراهم، وكذلك سلطانية الحساء التي كنت أشرب بها حساء الشعير، وملابسي التي كانت علي، كل هؤلاء قد تضافروا معاً كي يولّدوا فيّ هذه الأفكار. - قبل بضع ليال خلت، وحين خلعت ملابسي على منصة الحمام تغيرت أفكاري. حينما سكب المُدلك الماء على رأسي بدا وكأن أفكاري السوداء قد انغسلت. في الحمّام رأيت ظلي بالجدار المبلل بالعرق. رأيتني رقيقاً دقيق العود هشّاً مثلما كنت قبل عشر سنوات حين كنت طفلاً. أذكر جيداً أن ظلي كان يسقط على جدار الحمّام المتعرق. دققت في جسدي، كان لفخذي، وساقي، وخصري وضع يثير شهوة يائسة.

وكان ظلها كذلك كما قبل عشر سنوات، حينما كنت طفلاً - شعرت أن حياتي قد انقضت كلها دون معنى ودون هدف مثل ظل هائم، ظلالٍ راجفةٍ على جدار الحمّام. ولكن الآخرين كانوا ثقالاً راسخين أقوياء. لا بدّ أن ظلالهم كانت تسقط على جدران الحمّام المتعرقة أغمق لوناً وأضخم وتترك أثرها لمدة، في حين أن ظلي سرعان ما ينمحي - عندما ارتديت ملابسي في المكان المخصص لذلك في الحمام تغيرت قسمات وجهي وأفكاري مرة أخرى. كأنني دخلت بيئة وعالماً جديدين، كأنني وُلدت مرة أخرى في ذلك العالم الذي كنت أنفر منه، ومهما يكن فاني حصلت على



الحياة مرة أخرى. لأنه كان معجزة بالنسبة اليّ أنني لم أَذُبْ مثل حبة ملح في حوض الماء الساخن في الحمّام!

....

كانت حياتي في نظري غير طبيعية ولا معروفة وغير معقولة مثل الرسم على حافظات الأقلام الذي أنشغل بالكتابة عنه - كأن رساماً مجنوناً مريضاً بالوهم قد رسم وجه غلاف حافظة الأقلام هذه - في أغلب الأحيان حين أنظر الى هذا الرسم فكأنه يبدو معروفاً لديّ. لعله من أجل هذا الرسم... لعل هذا الرسم هو الذي يسلمني للكتابة - شجرة سرو مرسومة تحتها عجوز منحنٍ جاثم يشبه دراويش الهند، وقد لفّ نفسه بعباءة وعقد عمامة حول رأسه، ووضع سبابة يده اليسرى على فمه متعجباً. أمامه فتاة ترقص بين يديه بثياب سوداء طويلة وحركات غير طبيعية، لعلها راقصة معبد هندي، لعلها (بوغام داسي). وتمسك بيدها زهرة نيلوفر، ويفصل بينهما جدول ماء.

....

بجانب بساط العقار بعثرتُ كل أفكاري السوداء خلال الدخان اللطيف السماوي. كان جسمي في هذا الوقت يفكر، وجسمي يحلم، ويتزلق، كأنه قد تحرر من ثقل وقذارة الهواء، ويطير في عالم مجهول مليئ بالألوان والصور المجهولة، لقد نفث العقار في جسدي روحاً نباتياً، روحاً بطيئ الحركة نباتياً، كنت أجول في عالم نباتي - هل صرت نباتاً؟ ولكن وأنا على تلك الحالة أمام المجمرة والسفرة الجلدية أغالب النعاس، والعباءة على ظهري، لا أدري لماذا تذكرت العجوز بياع الخردوات، هو كذلك جالس مثلي وبالوضع نفسه



منحنياً أمام بساطه. ولّدتْ هذه الفكرة الخوف لديّ، نهضتُ فألقيت بالعباءة عن كاهلي، وقفت أمام المرآة، كانت وجنتاي متوهجتين ولهما لون اللحم في واجهة دكان القصاب، لحيتي غير مرتبة ولكني اكتسبت سيماء روحانية جذابة، وعيناي في حالة مرضية متعبة طفولية. كأن كل الأشياء الثقيلة الأرضية والبشرية قد ذابت فيّ. أعجبني وجهي، أحسست نوعاً من اللذة الشهوانية من نفسي؛ قلت لنفسي أمام المرآة: "انّ ألمك عميق الى حدّ احتباس عينيك... ولو بكيت فقد يخرج الدمع من وراء عينيك أو لا يخرج دمع أصلاً!...".

ثم قلت مرة أخرى: "انك أحمق، لماذا لا تقترف فعلتك سريعاً؟ ماذا تنتظر.. ماذا تتوقع حتى الآن؟ أليست قارورة الشراب في ملحق غرفتك؟ هلاّ شربت جرعة وذهبت؟!... أحمق... أنك أحمق... اني أتحدّث مع الهواء!".

لم تكن الأفكار التي تخطر لي مترابطة، وكنت أسمع صوتي في حنجرتي دون أن أفهم معنى الكلمات. تختلط في رأسي هذه الأصوات مع الأصوات الأخرى. مثلما حين كنت محموماً بدت لي أصابع يدي أكبر من المعتاد وجفناي يثقلان. تضخمت شفتاي. عندما التفتُ رأيت مرضعتي واقفة ضمن إطار الباب. ضحكت مقهقهاً، كان وجه مرضعتي جامداً، وهي تحملق بي بعينيها الخابيتين ولكن بدون تعجب أو غضب أو أسف – وعلى العموم كانت حركة حمقاء تبعث على الضحك. ولكن ضحكتي كانت أعمق من ذلك – انّ هذا الحمق الكبير مرتبط بكل تلك الأشياء الأخرى التي لم تكتشف في العالم والتي يصعب فهمها. ذاك الذي ضاع في أعماق ظلام



الليل، حركة للموت خارج إدراك البشر. تناولت مرضعتي المجمرة وخرجت بخطىً متأنية، جففتُ العرق على جبيني. كان على راحتي يديّ بقع بيضاء، استندتُ الى الجدار. ألصقتُ رأسي بالدعامة الخرسانية، بدا لي أنني أحسن حالاً. بعدئذٍ لا أدري أين كنت قد سمعت هذه الأغنية التي أخذت أدندن بها:

هلمَّ أيّها الصِّحابْ

هلمَّ نحتسي الشَّرابْ

نحسو شراب مِلْكٍ (ري)

قَبل أن يطويها الضّبابْ

كانت تؤثر في نفسي دائماً قبل الأزمة وتولّد لديّ اضطراباً خاصّاً - كان اضطراباً وحالة من الغمّ، مثل كتلة همّ تنيخ على قلبي - مثل الجوّ الذي يسبق العاصفة - عندئذٍ كان العالم الأرضي مسافة لا تقاس.

في هذا الوقت كنت أخاف من نفسي، أخاف من كل شخص، لكأن هذه الحالة ذات علاقة بالمرض. من أجل ذلك غدا فكري ضعيفاً.

حين رأيت العجوز صاحب الخردوات والقصاب عند نافذة حجرتي خفت. لا أدري ما الذي كان مخيفاً في حركاتهما وقسمات وجهيهما. أخبرتني مرضعتي بشيء مخيف. أقسمت لي بالرسل والأنبياء أن العجوز صاحب الخردوات كان يأتي في الليل الى حجرة زوجتي وأنها قد سمعت الفاجرة تقول له: "حُلَّ وشاح عنقك!". الأمر لا يحتاج الى تفكير أبداً - أول أمس أو اليوم الذي سبقه حين صرختُ وجاءت امرأتي ووقفتْ بباب حجرتي، رأيت، رأيت بأمّ عيني آثار أسنان العجوز القذرة الصفراء المتسوسة



على خدِّ زوجتي ومن بينها تبرز الآيات العربية - لماذا ظهر هذا العجوز أصلاً أمام بيتنا حالما تزوجتُ؟ لماذا يلازمنا، لماذا يلازم هذه الفاجرة ولا يفارقها؟ هل كان مجنونها المتيَّم بها؟ أذكر أنني في ذلك اليوم نفسه تقدمت نحو بساط العجوز وسألته عن ثمن إبريقه. أطلّتْ عبر ثنايا وشاح العنق من بين شفتيه المشقوقتين سنّان متسوّستان، وضحك، ضحكة منفرة جافة تجعل الشعر ينتصب على البدن، وقال: "أتشتري دون معاينة؟ انه لا يستأهل...، خذه أيها الشاب، عسى أن تنتفع به!". أدخلت يدي في جيبي وأخرجت درهمين وأربعة بشيزات[٢٦]، وضعتها على زاوية سفرته، ضحك من جديد، ضحكة منفرة تقيم الشعر على البدن. وددت من فرط الخجل أن أغور في الأرض، حجبت وجهي بيديّ ورجعت.

كانت تفوح من كل البساط الذي أمامه رائحة صدئة للأشياء القذرة المنبوذة التي لفظتها الحياة. لعله كان يريد أن يباهي الناس بالأشياء التي نبذتها الحياة. أن يُري الناس- ألم يكن هو ذاته إمام المنبوذين؟ كان كل ما على بساطه ميتاً، قذراً خَرِباً. ولكن يا لها من حياة سمجة ويا للأشكال الموحية التي لها! لقد تركتْ هذه الأشياء الميتة أثرها فيّ أكثر مما استطاع الناس الأحياء أن يفعلوا.

ولكن مرضعتي جاءتني بأخباره، كانت قد قالت للجميع... مع شحاذ قذر! قالت مرضعتي ان فراش زوجتي قد قمّل، وأنها ذهبت الى الحمّام هي

---

(٢٦) بشيز: قطعة عملة نحاسية ضئيلة القيمة.



نفسها - كيف كان ظلها على جدار الحمّام المتعرق؟ لا بـدّ كـان ظـلاً شهوانياً يأمل فيها. ولكن، على الإجمال، لم أكره ذوق زوجتي هذه المسـرة، لأن العجوز صاحب الخردوات لم يكن بشراً عادياً فاسداً فاقد الطعم مثـل اولئك الرجال القذرين ذوي الثروات الذين يوقعـون النسـاء الفضوليـات الحمقاوات في شراكهم - هذه الآلام؛ هذه الطبقات من الشقاء التي رانـت على وجه العجوز ورأسه والنكبات التي تهطل من حواليه، لعله - نفسه - لم يكن يعرف، ولكنها تظهره مثل نصف إله وبتلك السفرة القذرة التي كـانت أمامه، كان ممثلاً للخلق ومَظهراً له.

أجل، رأيت أثر السنّيْن الصفراوين المتسوستين اللتين تخرج مـن بينـهما آيات عربية على وجه زوجتي. هذه الزوجة ذاتها التي لم تكن تمكّنـي مـن نفسها، والتي كانت تحتقرني، ومع ذلك أحبها. رغم أنها لم تسـمح الى الآن بأن أطبع قبلة على شفتها! -

كانت الشمس صفراء، علا صوت النقّارة المؤثر الكئيـب[٢٧]. صـوت العجز والتضرع الذي كان يوقظ كل الخرافات الموروثة والخوف من الظلام. جاءت حالة الأزمة، الحالة التي كانت قد هزتني من قبـل و الـتي كنـت أنتظرها. شملتني حرارة حارقة من قمة رأسي حتى أخمـص قدمـيّ، كنـت أختنق. مضيت نحو الفراش وانطرحت عليه وأغمضت عيني - مـن شـدة الحمّى بدت كل الأشياء ضخمة ذات حواشٍ. والسقف بدلاً من أن يـهبط

---

[٢٧] صوت النقارة (الطبلة): اشارة الى الطبلة في مزار (حضرة عبد العظيـم). حيـث يطلب الزائرون للأماكن المباركة من الطبال أن يضرب الطبل لتحقيق حاجاتهم.



ارتفع، كانت ثيابي تضغط جسدي. نهضت دون سبب وجلست في الفراش، كنت أتمتم: "لا يمكن أكثر من ذلك... لا يمكن التحمل...". صمتتُ فجأة. ثم رحت أقول لنفسي ببطء وبصوت عالٍ وبنبرة ساخرة: "أكثر من ذلك...". ثم أضيف: "إني أحمق!". لم أكن متنبهاً لمعنى الكلمات التي كنت أرددها، فقط كنت أتسلى بارتعاش صوتي في الهواء. لعلي كنت أحادث ظلي دفعاً للسأم والوحدة - عندئذٍ رأيت شيئاً لا يصدّق - انفتح الباب ودخلت تلك الفاجرة. يتضح أنها كانت تفكر بي أحياناً - فينبغي الشكر إذ وقفت الأمور عند هذا الحدّ - هي كذلك كانت تعلم أنني حيّ وأتعذب وسوف أموت موتاً بطيئاً - كان ينبغي الشكر لأن الأمر وقف عند هذا الحد - كنت فقط أريد أن أعرف هل كانت تعلم أنني أموت من أجلها - فإن كانت تعلم، متُّ سعيداً مرتاح البال - وكنت عندئذٍ أسعد الناس على وجه الأرض - حين دخلت هذه الفاجرة حجرتي هربت أفكاري السيئة. لم اكن أدري أي أشعة تنبعث من وجودها وحركاتها بحيث هدّأتني - كان حالها في هذه المرة أفضل، وقد غدت مكتنزة ريانة ناضجة - كانت ترتدي شالاً رمادياً غامقاً مثلثاً، وقد زجّجتْ حاجبيها، ورسمت خالاً ودقت وشماً وتبرجت وَاكتحلت. خلاصة القول انها استخدمت كل ضروب التبرج حين دخلت حجرتي. كانت تبدو قانعة بحياتها وقد وضعت سبابة يدها اليسرى على فمها دون ارادة منها - هل هذه هي تلك المرأة اللطيفة ذاتها، تلك الفتاة الظريفة الأثيرية ذاتها التي كانت ترتدي ثوباً أسود مغضناً وتلعب وإيانا على ضفة نهر (سورن)، تلك الفتاة ذاتها بحالتها الحرة الطفولية المؤقتة والتي كان كاحلها



المثير بارزاً من تحت ردائها؟ كنت حتى الآن، لا أنتبه جيداً حين أنظر اليها، عندئذٍ كأن حجاباً قد أزيح عن عيني - لا أدري لماذا تذكرتُ الخراف أمام دكان القصاب - بدت لي بمثابة قطعة من اللحم المتروع العظم وقد فقدت خواصها الجذابة السابقة تماماً - امرأة ناضجة مهتمة بالحياة، امرأة شديدة المكر! زوجتي! - بخوف وارتياع رأيت أن زوجتي كبرت ونضج عقلها، في حين بقيتُ - أنا - في مرحلة الطفولة حقاً لقد خجلت من مواجهتها، من النظر في عينيها. المرأة التي كانت تسلم جسدها للجميع سواي دون تردد، وأنا فقط أعزي نفسي بذكريات موهومة عن طفولتها. حين كان لها وجه ساذج طفولي، وتعابير مبهمة عابرة، و لم تكن قد ظهرت بعدُ على وجهها آثار أسنان العجوز صاحب الخردوات العابر - كلاّ انّ هذه الإنسانة ليست تلك.

قالت متهكمة: "كيف حالك؟". أجبتها: "ألستِ طليقة؟ ألا تفعلين ما يطيب لك؟ مالك ولحالي؟".

صفقت الباب وانصرفت. لم تلتفت أصلاً لتنظر الي - كأنني قد نسيت كيفية التحدث مع البشر في العالم، مع البشر الأحياء - انها تلك المرأة ذاتها التي كنت أحسبها عارية عن أي إحساس قد آلمْتها حركتي هذه! كم من المرات أردت أن أنهض فأنكبَّ على يديها ورجليها، أبكي، أطلب المعذرة - أجل، أبكي، لأني حسبت أنني لو استطعت البكاء لاسترحت - مضت بضع دقائق، بضع ساعات، أو بضعة قرون لا أدري - صرتُ مثل المجانين، وآلامي غدت توفر لي اللذة - لذة فوق آدمية، لذة لم يكن بوسع سواي أن ينالها،



وليست الآلهة إن وُجدَتْ بقادرة على استشعار لذة بهذا القـــــدر.. عندئـــذٍ اكتشفت تفوّقي، أحسست بتفوقي على الرعاع، والطبيعة، والآلهة.. الأرباب الذين ولّدهم شهوات البشر - أصبحت إلهاً، وكنت أكبر من الرَّب كذلـك؛ إذ كنت أحسّ في ذاتي تياراً خالداً لا متناهياً...

... ولكنها عادت مرة أخرى - لم تكن قاسية القلب الى ذلك الحد الذي تصورته، نهضتُ وقبلتُ طرف ردائها وانكببتُ على قدميـــها وأنـــا أبكـــي وأسعل. مرّغت خدّي بساقها وناديتها عدة مرات باسمها الحقيقي. كان اسمها الأصلي كأن له جرْساً خاصاً. ولكن في سرّي، وفي أعماقي كنـــت أقـــول: "فاجرة... فاجرة!". احتضنت ربلتيْ ساقيها اللتين كان لهما طعـــم عقـــب الخيار، مرٌّ ولطيف وقابض. بكيتُ وبكيتُ وبكيت، لا أدري كم كان قـــد مضى من الوقت حين ثُبْتُ الى نفسي فرأيت أنها انصرفت. ربما لم يســـتغرق الأمر لحظة واحدة إذ أحسست في نفسي كل لذاذات البشـــر وعذوبـــاتهم وآلامهم، وعلى ذلك الحال مثلما كنت أجلس الى بساط الأفيـــون، مثـــل العجوز صاحب الخردوات الذي يجلس قدّامَ بساطه، ظللتُ أمـــام الســـراج المدخن، دون أن أحرك ساكناً، مكتفياً بالتحديق في دخان السراج - وذراتـه تتساقط على وجهي ويديّ مثل ندف ثلج أسود. حين أحضرت لي مرضعتي زبدية حساء الشعير ومرق الخضار والدجاج، لم تتمالك نفسها من الخـــوف فصرختْ وتراجعتْ، وسقطت صينية العشاء من يدها. فرِحتُ إذ تسببتُ في خوفها على الأقل. نهضتُ بعد ذلك وقصصتُ رأس الفتيل بالمقص ووقفـــت قدّام المرآة. دهنت وجهي بالسخام. يا لها من سحنة مخيفة! شددت أســـفل



عيني باصبعي وتركته، فغرتُ فمي، نفخت خدي بالهواء، رفعت ما تحت ذقني وبَرمتُه من كلا جانبيه، كنت أمثل بوجهي أوضاعاً غريبة - كان لوجهي إمكانيات كبيرة لتمثيل سِحَنٍ مضحكة ومخيفة. كنت كأني بهذه الوسيلة، أرى بجلاء كل التكوينات المضحكة المخيفة وغير المعقولة الكامنة في كياني - كنت أعرف هذه الحالات في نفسي وأحسها وتبدو لي مضحكة في الوقت ذاته. كل هذه السِّحَنِ كانت فيَّ ولي. الوجوه المخيفة المحرمة والتي تبعث على الضحك، والتي تتغير بإشارة من إصبع. شكل العجوز المقرئ، شكل القصاب، شكل زوجتي، كل هذه رأيتها في نفسي. كأن صورتها كانت فيَّ - كل هذه السحن كانت فيَّ، ولكن لم تكن أي منها لي. ألم تكن عجينتي وحالة وجهي قد تكونتا على أثر دافع مجهول، على أثر وَساوِس ومضاجعات وخيبات أمل موروثة؟ وأنا الذي كنت حارس هذا العبء الموروث، ألم يكن فكري متنبهاً الى أنه يحفظ هذه الحالات في قسمات وجهي دون إرادة وبواسطة حسٍّ مضحك مشوب بالجنون؟ ربما عند الموت وحسب، تنعتق قسمات وجهي من قيد هذا الوهم، وتكتسي بالحالة الطبيعية التي كان ينبغي أن تكتسي بها.

ولكن في الحالة الأخيرة، ألا تترك الحالات التي نقشْتُها على وجهي دائماً إرادتي المشوبة بالسخرية، علامتَها أشدَّ وأعمقَ؟ أدركت على أية حال ما أنا قادر على إتيانه من أفعال، واكتشفت استعداداتي. انفجرت بالضحك فجأة، يا له من ضحك خشن منفر ومخيف، أقام الشعرَ على بدني. لأني لم أعرف صوتي. مثل صوت أجنبي عني، ضحكة دوّتْ غالباً في قعر حنجرتي - سمعتها



في حذر أذني، رنّت في أذني - عندئذٍ غلبني السعال وقعتْ قطعة من البلغم الدامي، قطعة من كبدي على المرآة، فسحبتها على المرآة بطرف اصبعي. وحين التفتتُ رأيت مرضعتي شاحبة الوجه، حائلة اللون، مشعثة الشعر بعينين خابيتين، مرعوبة، على يدها زبدية من حساء الشعير، من ذلك الحساء الذي كانت قد أحضرته لي قبلُ، وهي تنظر اليّ مبهوتة. رفعت كفيّ ووضعتهما أمام وجهي، وذهبت فتواريت وراء ستار ملحق الغرفة.

حين أردت النوم، كانت حلقة نارية تضغط ما حول رأسي. الرائحة الحادة المثيرة للرغبة لزيت الصندل الذي كنت صببته في السراج تدور في أنفي. كان لها رائحة ربلتي ساقي زوجتي، وطعم عقب الخيار المر اللطيف كان في فمي. رحت أداعب جسدي بيدي، وفي خيالي أقارن أعضاء جسمي: فخذي، ساقي، ذراعي وكل أعضائي مع أعضاء جسد زوجتي. خطّ الفخذ والإلية، حرارة جسد زوجتي تجسدت أمامي من جديد. كانت أقوى من التجسد بكثير، لأنها أخذت شكل الحاجة. أحسست أنني أريد ان يكون جسدها قريباً مني. كانت حركةٌ واحدة، قرارٌ واحد كافياً لدفع هذا الوهم المثير للشهوة. ولكن هذه الحلقة النارية حول رأسي غدت ضيقة وحارقة. بحيث غُصتُ في بحر مبهم ومضطرب مع هياكل مرعبة.

كان الجو ما يزال مظلماً، استيقظت على صوت مجموعة من العَسَس الثملين يعبرون الزقاق، ويتشاتمون بشتائم بذيئة ويغنّون معاً:

هلمَّ أيّها الصّحابْ
هلمَّ نحتسي الشّرابْ



نحسو شرابَ مُلكٍ (ري)
قَبْل أن يطويها الضّبابْ

تذكرت، كلاّ، بل أوحي الي فجأة أن لدي قارورة شراب في ملحق حجرتي، الشراب الذي أذيبَ فيه سمٌّ ناب الأفعى، والذي بجرعة منه تفنى كل كوابيس الحياة وتنعدم.. ولكن تلك الفاجرة..؟ كانت هذه الكلمة تجعلني أكثر حرصاً عليها وضنّاً بها، كانت تجسدها لي أشدَّ حيوية واكثر حرارة.

ماذا كان بوسعي أن أتخيل أفضل من هذا، اعطيها كأساً من ذلك الشراب وأجرع كأساً، وعندئذٍ نموت معاً خلال نوبة واحدة! ما هو الحبّ؟ انه عند كل الرعاع دعارة وانفلات مؤقت من المسؤولية. عشق الرعاع ينبغي العثور عليه في الأغاني البذيئة المتهتكة والفحشاء والاصطلاحات الركيكة التي لا يكفّون عن تكرارها في عالم الصحو والسكر. مثل الاصطلاحات التي يُكنّى بها عن فعل المواقعة – ولكن عشقي لها، كان عندي شيئاً آخر – صحيح أنني كنت أعرفها من قديم: عيناها المائلتان العجيبتان، فمها الضيق نصف المفتوح، صوتها المبحوح الهادئ، كل هذه كانت بالنسبة الي مملوءة بالذكريات البعيدة والمؤلمة، وكنت أبحث فيها كلها عما ظللت محرومًا منه، الشيء الذي كان مرتبطاً بي وأُخذ مني.

ألا هل حُرمتُ الى الأبد؟ من أجل هذا تولّد في نفسي إحساس أكثر إرهاباً. كنت أحس لذة أخرى لتعويض عشقي اليائس – وقد غدت لدي هاجساً من نوع ما، لا أدري لماذا تذكرت القصاب المواجه لنافذة غرفتي



وهو يشمِّر عن ساعده ويَسمّي ويقطع اللحم. كانت هيئته ووضعه لا يغيبان عن ناظري – في النهاية اتخذت بدوري قراراً – قراراً مرعباً. نهضت من فراشي، شمرت عن ساعدي وتناولت السكين ذات المقبض العظمي التي كنت وضعتها تحت وسادتي. انحنيت وألقيت على كاهلي عباءة صفراء. ثم لفعت رأسي ووجهي بوشاح عنق – أحسست أنه قد تولّد لدي حالة هي مزيج من روحية القصاب والعجوز صاحب الخردوات.

مضيت بعد ذلك نحو غرفة زوجتي محاذراً أن أثير أي صوت. كانت حجرتها مظلمة، فتحت الباب ببطء. كانت كأنها تحلم، تقول لنفسها بصوت عالٍ عالٍ: "حُلَّ وشاح عنقك!". مضيت نحو الفراش، أدنيت رأسي من وجهها، أمام أنفاسها الحارة اللطيفة. يا لها من حرارة لذيذة تردُّ الروح للبدن! بدا لي أنني لو تنفستُ هذه الحرارة بعض الوقت لعُدْتُ الى الحياة من جديد. آه، كم مضى علي من الوقت وأنا أحسب أن الجميع لا بدَّ لهم أنفاس ملتهبة حارقة مثلي – دقّقت كي أرى إن كان ثمة في حجرتها رجل آخر. أي هل كان هنالك أحد من فاسقيها أم لا. ولكنها كانت وحيدة. أدركتُ أن كل ما نُسِبَ اليها كان محض افتراء وبهتان. وما يدريك لعلها ما تزال عذراء! لقد خجلتُ من كل ما توهمته حولها من أوهام. لم يستغرق هذا الإحساس أكثر من دقيقة واحدة، لأنه في هذا الوقت بالذات جاء من خارج الباب صوت عُطاس، وسمعت ضحكة مكتومة ساخرة تقيم الشعر على البدن – هذا الصوت شدَّ كل العروق في جسدي، لو لم أسمع هذه العطسة والضحكة، لو لم يَحُلَّ بي الصبر، لكنتُ – كما قد صمّمتُ من قبل –



قطّعتُ لحم جسدها إرباً إرباً، وأعطيته للقصاب قدّام بيتنا كي يبيعه للنـــاس. ولكُنتُ أعطيت قطعة منه على سبيل النذر الى العجوز المقرئ، وذهبت اليــه في الغد وقلت له: "أتدري لحم من الذي أكلته بالأمس؟".

لو لم يضحك، لَتَحَتَّمَ أن أكون قد أنجزتُ هذا العمل ليلاً بحيث لا تلتقـي نظراتي ونظراتِ الفاجرة، لأني كنت أخجل من تعبير عينيها، كانتا تعاتبـــانني – أخيراً التقطتُ قطعة القماش التي علقتْ بها قدمي من جــــانب فراشـــها، وعدوتُ أخرج خائفاً. طوّحت بالسكين ألقيها فوق سطح البيــــت بحيـث يصعب استرجاعها – لأن كل أفكاري الإجرامية قد ولدتها هـــذه الســكين لدي – أبعدتُ عني هذه السكين التي تشبه سكين القصاب.

حين عدت الى غرفتي، رأيت على ضوء السراج أنني قد التقطت رداءهـا. الرداء الحريري الناعم المنسوج في الهند الذي يفوح بشذى جسدها، بشـــذى عطر السوسن البري، والذي بقي في هذا الرداء من حرارة جســـدها ومـــن وجودها. تشممته، وضعته بين رجليّ ونمت – لم أنم في ليلة من الليالي بمثــل هذه الراحة. في الصباح الباكر استيقظت على صوت جلبة زوجــــتي الـــتي راحت تتشاجر بسبب ضياع الرّداء وتكرّر القول: "انه رداء جديـــــد!"، في حين كان طرف كُمّه ممزقاً. ولكني لم أكن على استعداد لردّ الـــرداء ولـــو سالت الدماء – أليس لي حق في رداء مهترىء لزوجتي؟

عندما أحضرت لي مرضعتي حليب الأتان والعسل وخبز التنور الســميك، كانت تضع على الطبق بجانب فطوري سكيناً ذات مقبض عظمي، قالت انها شاهدتها ضمن محتويات بساط العجوز بائع الخردوات فاشترتها. ثم رفعـــــت



حاجبيها وقالت: "يمكن الاستفادة منها في الحياة اليومية!". تناولتُ السكين ونظرت اليها، انها ذاتها.ثم قالت مرضعتي بنبرة شكوى وألم: "نعم، بنتي (تقصد تلك الفاجرة) في هذا الصباح الباكر تقول انك قد سرقت رداءها! لا أريد أن أخفي عنك، فآثَمَ من جراء ذلك - ولكنّ امرأتك قد جاءها الحيض أمس... نحن نعلم أن الطفل قد[٢٨]... هي نفسها كانت تقول انها قد حملت في الحمّام، ليلة أمس ذهبت كي أدلّك لها خصرها، فرأيت ذراعها مبقعة ببقع زرقاء - أرَتْني إياها وقالت: "دخلت قبو البيت في وقت غير ملائم، فقرّصني الجن!". قالت مرة أخرى: "أما علمت أبداً أن امرأتك ظلت حاملاً لوقت طويل؟". ضحكتُ وقلت: "لا بدَّ أن شكل الطفل هو شكل المقرئ العجوز".

- ثم خرجتْ مرضعتي وقد تغيرت هيئتها. كأنها لم تكن تنتظر هذا الجواب. نهضتُ على الفور، أخذتُ السكين ذات المقبض العظمي بيدٍ راجفة الى داخل ملحق غرفتي، ووضعتها داخل العلبة الصغيرة وأغلقتها عليها.

كلاّ، لا يمكن أبداً أن يجئ الطفل شبيهاً بي. لا بدَّ أنه قد جاء شبيهاً بالعجوز صاحب الخردوات!.

بعد الظهر انفتح باب حجرتي ودخل أخوها الصغير، الأخ الصغير لتلك الفاجرة، دخل وهو يقضم أظافره. كل من يراهما يعرف على الفور أنهما أخ وأخت. يكادان يتطابقان شبَهاً! كان له فم صغير ضيق، شفتان مكتنزتان

---

(٢٨) قد أُسقِط.



نديتان شهوانيتان، جفنان منحنيان ثملان، عينان مائلتان متعجبتان، وجنتان بارزتان، شعرٌ بنّي غير مرجّل وطلعة حنطية. - كان يشبه تلك الفاجرة تماماً، كما كان له بعض روحها الشيطانية - من هذه الوجوه التركمانية التي صيغت بلا احساسات وبلا روح كي تناسب العراك مع الحياة، طلعةٌ تجيز فعل كل شيء من أجل الاستمرار في العيش. كأن الطبيعة كانت قد تنبأت من قبل، كأن أجدادهم قد عاشوا طويلاً تحت الشمس والمطر وتصارعوا مع الطبيعة، و لم يكتفوا بتوريثهم شكلهم ومظهرهم مع تغيير طفيف، بل لقد أسبغوا عليهم كذلك من استقامتهم وشهواتهم وبخلهم وجوعهم. كنت أعرف طعم فمه، كان لطيفاً مثل طعم عقب الخيار المرّ.

حين دخل الحجرة نظر الي بعينيه التركمانيتين المندهشتين وقال: "شاه جهان تقول ان الطبيب قال إنك ستموت، وسوف نخلُص من شرِّك. ألا كيف يموت الإنسان؟".

قلت: "قل له لقد متُّ منذ زمن بعيد".

- "شاه جهان قالت: لو لم يسقط الطفل لأصبح البيت كله ملكاً لنا".

انفجرت ضاحكاً دون إرادة، ضحكاً جافاً منفّراً يجعل الشعر ينتصب على الأبدان، بحيث لم أعرف صوتي، جرى الطفل يخرج من الغرفة خائفاً.

في هذا الوقت أدركت لماذا ينظف الجزار السكين ذات المقبض العظمي على أفخاذ الخراف متلذذاً. - لذة جَرْم اللحم المتروع العظم الذي تجمع فيه الدم الميت، الدم المتخثر، مثل الطين الأسود المترسب، والدم المخلوط بالماء يتقطر على الأرض من القصبات الهوائية للخراف - الكلب الأصفر قُدّام



دكان الجزار ورأس البقرة المرمي على أرضية الدكان ينظر بصراحـــة بعينيـــه المظلمتين، وكذلك كل رؤوس الخراف، بالعيون التي ران علها غبار المـــوت، هذه أيضاً قد رأت، هذه أيضاً كانت تعرف!

أُدرك في النهاية أنني صرت نصف إله، كنت فوق كل احتياجات النـــاس الحقيرة التافهة، وأحس في نفسي تيار الأبدية والخلود - ما هـــي الأبديـــة؟ كانت الأبدية بالنسبة الي أن ألعب مع تلك الفاجرة على ضفة نهر (ســـورن) وأغمض عيني لحظة وحسب، وأدفن رأسي في حِجرها.

بدا لي مرة أنني كنت أحدث نفسي، وعلى نحو غريب، أردت أن أحادث نفسي، ولكن شفتيّ ثقُلتا الى حد أنهما لم تكونا على استعداد لأدنى حركـــة. ولكني شعرت أنني أحدث نفسي دون أن تتحرك شفتاي أو أسمع صوتي.

في هذه الغرفة التي كانت مثل القبر تضيق وتظلم لحظة بلحظة، أحـــاط بي الليل بظلاله المخيفة. كان ظلي ساقطاً على الجدار أمام السراج المدخن وأنـــا جاثم وعليَّ فروة الصوف والعباءة التي لففت نفسي بها ووشاح العنق.

كان ظلي ساقطاً على الجدار أغمقَ وأدقّ من جسمي الحقيقي، لقد غـــدا ظلي حقيقياً أكثر من وجودي. - كأن العجوز صاحب الخردوات، والجزار، ومرضعتي وزوجتي الفاجرة كانوا جميعاً ظلالي، ظلالاً كنت محبوساً بينـها. في هذه الأثناء صرت شبيهاً ببومة، ولكن أنيني احتبس في حلقي فكنت ألفظـــه على شكل بقعة من الدم. لعل البومة أيضاً تعاني مرضاً فتفكر مثلي. أصبـــح ظلي على الجدار يشبه البومة تماماً وهو منحنٍ يقرأ كتاباتي بعناية. ولا بدّ أنـــه



يفهم جيداً، فهو الوحيد الذي كان باستطاعته أن يفهم. كنت أنظر الى ظلي بطرف عيني وأخاف.

كانت ليلة مظلمة ساكنة، مثل الليل الذي احتوى حياتي برمتها. بالهياكل المخيفة التي تطل من حولي، من وراء الستار، وتقلد حركاتي ساخرة. كانت حجرتي تضيق أحياناً الى حدٍّ أحس معه أنني نائم في تابوب، صدغاي يكادان يحترقان، وأعضائي ليست مستعدة لأية حركة. ثمة ثقل يضغط على صدري، مثل ثقل الجثث التي يلقونها على ظهر الكديشين الأسودين النحيلين ويسلمونها للجزار.

كان الموت يزمزم لحنَه ببطء، مثل شخصٍ أبكمَ مضطرٍّ الى تكرار كل كلمة، وما إن يفرغ من بيت من الشعر حتى يشرع من جديد. كان لحنه مثل ارتعاش أنين المنشار يتغلغل في لحم البدن، يصرخ ويختنق فجأة.

لم تكد عيناي تغمضان حتى عبرتْ مجموعة من العسس الثملين من وراء حجرتي، وهم يتبادلون الشتائم البذيئة ويغنون معاً :

هلمَّ نحتسي الشّرابْ

نشربُ نَخبَ مُلكِ (ري)

قَبل أن يطويها الضّبابْ

قلت في نفسي: "في تلك الحالة، سوف أقع في النهاية في أيدي العسس!". أحسست في نفسي فجأة قوة فوق قوة البشر: بَرَدَ جبيني، نهضت وألقيت بالعباءة الصفراء التي عندي على كاهلي، لففت وشاح عنقي حول رأسي مرتين أو ثلاثاً، انحنيت، ذهبت واستخرجت السكين ذات المقبض العظمي



التي كنت أخفيتها في العلبة، ومضيت نحو حجرة الفاجرة محـــاذراً - حـــين بلغت الباب كانت حجرتها غارقة في ظلام كثيف. أصَخْتُ السَّمع، سمعتـــها وهي تقول:

"هل جئت؟ حُلَّ وشاح عنقك!". كان لصوتها جَرْسٌ محبّب، لقد أصبـــح مثل صوت طفولتها. مثل الزمزمة التي تصدر عن النائم، دون مســــؤولية - كنت قد سمعت هذا الصوت سابقاً أثناء نوم عميق - هل كانت تحلم؟ أصبح صوتها مبحوحاً غليظاً مثل صوت الطفلة التي كانت تلعب معي على ضفـاف نهر (سورن). توقفتُ قليلاً، سمعتها تقول مرة أخرى: "أدخلْ وحُـــلَّ شـــال عنقك!".

دخلت الغرفة في العتمة على مهل، نزعت عباءتي ووشاح عنقي. تجـردت ولكن لا أدري لماذا مضيت فدخلت الفراش هكذا والسكين ذات المقبـــــض العظمي في يدي، بدا وكأن دفـء فراشها قد نفث في جسدي روحاً جديداً. بعد ذلك احتضنتُ جسدها اللذيذ، النديّ، الدافئ وأنا أتذكر تلـــك البنيَّـــة الشاحبة النحيلة ذات العينين التركمانيتين، الواسعتين البريئتين، الـــتي كنـــت ألعب وإياها على ضفة نهر (سورن). - كلاّ، لقد انقضضتُ عليـــــها مثـــل حيوان مفترس جائع وأنا أُكِنّ لها الكُرْهَ في أعماق قلبي، بدا لي أن الشـــعور بالحب والشعور بالحقد كانا توأمين. انشقّ الجسد الشاحب شحوب القمـــر، والبارد اللطيف، جسد زوجتي، مثل أفعى تلتف حول صيدهـــا، واحتبســـني ضِمْنَه - كان عطر صدرها يدير الرأس، وللحم ذراعيها الذي التفّ حـــول عنقي دفـء لطيف، تمنيت في هذه اللحظة أن تنقطع حياتي. لأن كل الحقـــد



والبغضاء اللذين كنت أُكِنّهما لها قد تلاشيا في هذه الدقيقة، وحـــاولت أن أمنع نفسي من البكاء - دون أن أتنبه الى أن ساقيها مثل نبتة المحبة قد انغلقـا حول ساقيّ ويديها التصقتا بمؤخر عنقي - كنت أحس حرارة هذا اللحـم الطري الطازج المحببة، وكانت كل ذرات جسدي الحارقة ترتشـف هـذه الحرارة. أحسست وكأنني طُعم تلتهمه وتسحبه الى جوفها. اختلط الإحساس بالخوف والشعور باللذة معاً، كان لفمها طعم عقب الخيار، طعـم حـاذق قابض. أخذت أثناء هذا الضغط المحبب أتصبب عرقاً، وقد ذهلت عن نفسي.

ولأن جسدي، وكل ذرات وجودي، هي التي كانت مسيطرة علي، فقـد أخذت تنشد نشيد الفتح والنصر عالياً - وقد أحنيت الرأس واستسـلمتُ - أنا المحكوم العاجز أمام رغبة الأمواج وشهواتها في خضم هذا البحر اللامتناهي - التصق شعرها الذي فاح منه عطر السوسن البري بوجهي وانطلقت صرخة الانفعال والفرح من أعماق وجودينا - شعرتُ فجأة أنها عضـت شـفتي بشدة، بحيث انشقت شفتي من منتصفها - هل كانت تقضم اصبعها كذلـك على هذا النحو أم انها أدركت أنني لست العجوز ذا الشفة المشـقوقة؟ أردت النجاة بنفسي ولكني كنت غير قادر على الإتيان بأيـة حركـة. حـاولتُ وحاولت دون جدوى، لقد التحم جسدانا معاً.

حسبتها جُنَّتْ. حركتُ يدي أثناء العراك دون اختيار مني فشـعرت أن السكين التي كانت في يدي غاصت في مكان ما من جسدها _ انثال علـى وجهي سائل حارّ، وصرختْ هي وأخلت سبيلي. أبقيت السائل السـاخن الذي ملأ قبضتي على حاله، وقذفتُ بالسكين بعيداً.



تحررت يدي، أمررتها على جسدها، لقد بردتْ تماماً - كانت ميتة. في هذه الأثناء انخرطتُ في السعال، ولكن هذا لم يكن سعالاً، انه صوت ضحك خشن منفر ينصب الشعر على البدن - ألقيت بعباءتي على كاهلي مذعوراً وذهبت الى حجرتي - فتحت قبضتي أمام السراج، فرأيت عينها عالقة في كفي، وجسدي غارق كله بالدم.

مضيت ووقفت أمام المرآة، ولكنني من شدة الخوف حجبت وجهي بيدي - رأيت أنني صرت شبيهَ، كلاّ، بل صرت العجوز صاحب الخردوات ذاته. كان شعر رأسي ولحيتي مثل شعر رأس ولحية شخص يخرج حياً من غرفة فيها حية كوبرا - مبيضّاً كله، وشفتي مشقوقة مثل شفة العجوز، عيناي بلا رموش، وقبضة من شعر أبيض برزت خارجة من صدري، وقد حلّت في جسدي روح جديدة. لقد كنت أفكر على نحو مختلف تماماً. كنت أحس وأشعر على نحو آخر و لم أكن أستطيع الخلاص من قبضته - قبضة الشيطان الذي استيقظ فيّ، انفجرت بالضحك هكذا وأنا أحجب وجهي بيدي دون ارادة مني. ضحكٍ أشدَّ من ذي قبل، هزَّ كياني هزّاً عنيفاً. ضحك عميق لم يكن معروفاً من أية حفرة ضائعة في جسدي يخرج، ضحك أجوف يطوّف في حنجرتي فقط ويخرج من خواء - لقد أصبحتُ الرجل العجوز صاحب الخردوات.

* * *

كنت من شدة الإهتياج، كأنني أفقت من نوم عميق طويل، فركتُ عينيّ. كنت في غرفتي السابقة ذاتها، الوقت بين الظلمة والنور، الغيم والضباب



أغبشا الزجاج - صياح الديكة يُسمع من بعيد - في المجمرة أمامي تحوّل الجمر الى رماد بارد مرهون بنفخة واحدة. أحسست أن أفكاري كانت مثل الجمر الأجوف المترمد، مرهونة بنفخة واحدة.

كان أولُ ما بحثت عنه أصيصَ مدينة (ري) الذي كنت أخذته من العجوز سائق العربة في المقبرة، ولكن الأصيص لم يكن أمامي. نظرت فرأيت عند الباب شخصاً منحنياً، كلاّ، كان هذا الشخص شيخاً أحدب يلف رأسه ووجهه بوشاح عنق، وتحت إبطه شيء مثل إبريق مربوط بمنديل قذر - وهو يضحك ضحكاً جافّاً منفراً يقيم الشعر على الأبدان.

ما إن هممت بالحركة في مكاني حتى انصرف من باب حجرتي. نهضت، وأردت أن أعدو خلفه وآخذ منه ذلك الإبريق، ذلك المنديل المعقود - ولكن الشيخ ابتعد بسرعة ومهارة خاصين. انثنيت وفتحت نافذة حجرتي المطلة على الزقاق - رأيت هيكل العجوز المنحني في الزقاق وكتفاه تهتزان من شدة الضحك، وهو يحمل ذلك المنديل المعقود تحت إبطه. مضى وهو يتعثر حتى اختفى تماماً وراء الضباب. استدرتُ ونظرت الى نفسي، رأيت ثيابي ممزقة، وقد تلطختْ بدم متخثر من قمة رأسي الى أخمص قدمي، وذبابتان خنفسيتان تدوران حولي. وديدان بيضاء صغيرة تتلوّى على جسدي وتتشابك - وثقل ميت ينيخ على صدري....



يعتبر صادق هدايت (١٩٠٣ طهران -١٩٥١ بارس) من أهم كتّاب اللغة الفارسية المعاصرين على الاطلاق. وتقف روايته البومة العمياء في مقدمة أعماله القليلة جداً وقد صدرت عام ١٩٣٦ لأول مرّة بخط يده في مدينة بومباي بالهند. ولم تطبع في بلده الا بعد انتحاره عام ١٩٥١ في باريس، حيث صدرت لأول مرّة عام ١٩٥٢ في طهران، كما انها تُرجمت الى الفرنسية في نفس العام وأعتبرها الكثير من الكتّاب، ومن ضمنهم الشاعر السوريالي أندريه بروتون، عملاً مهماً وأساسياً. منشورات الجمل تقدم لأول هذه الترجمة العربية الكاملة عن الفارسية.



